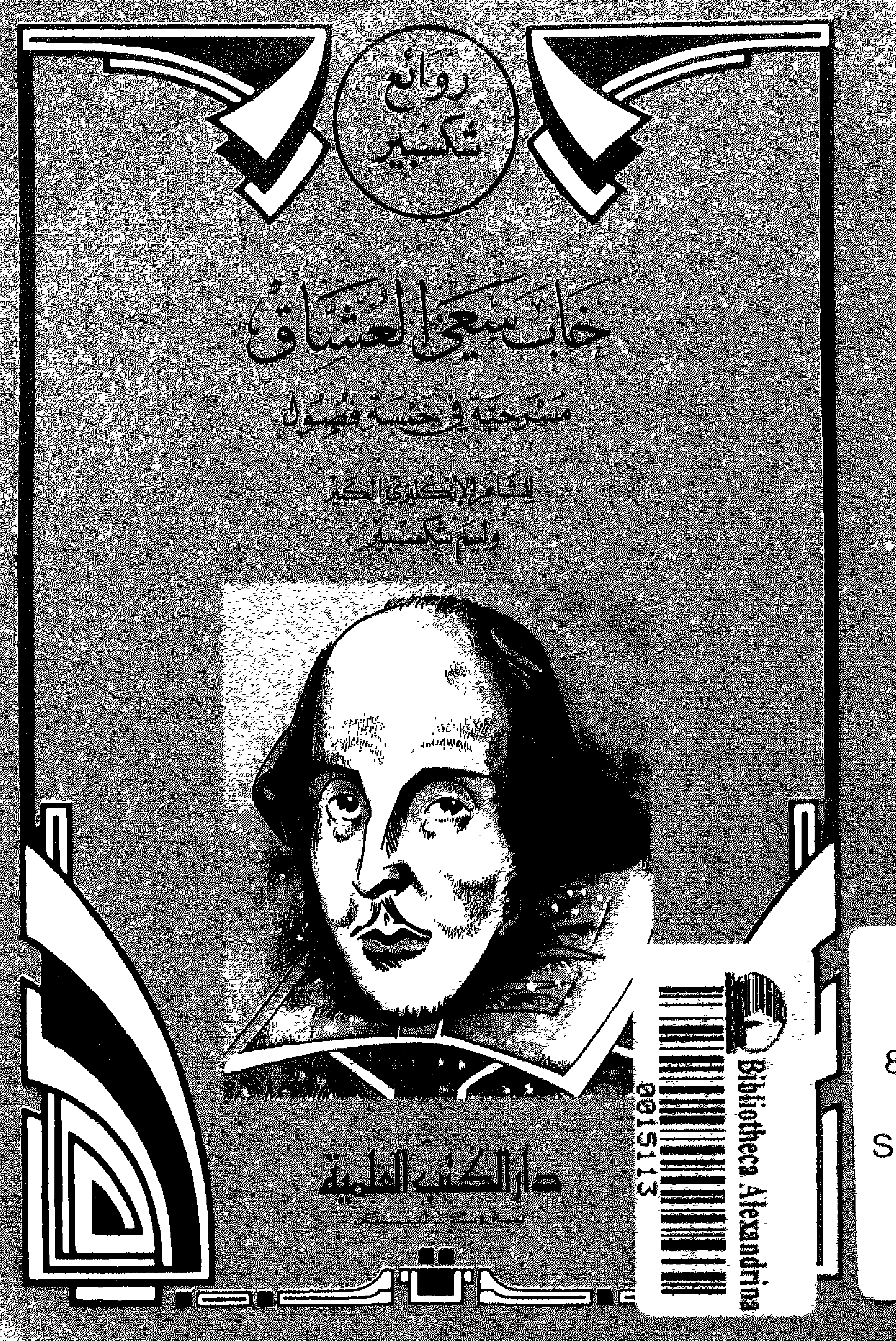

روائع شكسبير
خاب سعي العشاق
مسرحية في خمسة فصول
للشاعر الإنكليزي الكبير
وليم شكسبير
دار الكتب العلمية

خاب سعي العشاق

خاب سعي العشاق

مسرحية في خمسة فصول

للشاعر الإنكليزي الكبير
وليم شكسبير

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

وليم شكسبير
(١٥٦٤ - ١٦١٦)

اعظم الشعراء والكتاب المسرحيين الإنكليز ، ومن ابرز الشخصيات في الأدب العالمي إن لم يكن أبرزها على الإطلاق . يصعب تحديد عبقريته بمعيار بعينه من معايير النقد الأدبي ، وإن كانت حكَمُه التي وضعها على لسان شخصيات رواياته خالدة في كل زمان .

هناك تكهنات وروايات عديدة عن حقيقة شخصيته التي يكتنفها الغموض والإبهام ، وعن حياته التي لا يعرف عنها إلا القدر اليسير . والثابت أن اباه كان رجلاً له مكانته في المجتمع ، وكانت أمه من عائلة ميسورة الحال . وقيل إنه بلغ حدّاً من التعليم مكّنه من التدريس في بلدتهستراتفورد-أون-آفون ، التي يوجد بها الآن مسرح يسمى باسمه ، يقوم بالتمثيل على خشبته اكبر الممثلين المتخصصين في رواياته . ومن الثابت أيضاً انه تزوج من آن هاتاواي ، وانجب منها ثلاثة اطفال .

في سنة ١٥٨٨ انتقل إلى لندن وربط حياته بالمسرح هناك . وفي سنة ١٥٨٩ أخرجت اولى مسرحياته ، وهي إما مسرحية « كوميديا الأغلاط » أو الجزء الأول من مسرحية « هنري السادس » . وفي سنة ١٥٩٩ اشترك في إدارة مسرح غلوب الشهير .

وقد كان شكسبير رجل عصره على الرغم من عالمية فنه ، إذ تأثر إلى حدّ بعيد بمعاصريه من كتّـاب المسرح مثل توماس كيد وكريستوفر مارلو ، وخاطب مثلهم الذوق الشعبي في عصره ، وهو الذوق الذي كان يهوى المآسي التاريخية بما فيها من عنف ومشاهد دامية . كما كان يهوى المشاهد الهزلية ذات الطابع المكشوف التي كانت تتخلل المسرحيات التراجيدية لتخفف من حدة وقعها .

غير أن شكسبير هذّب القصص التي نقلها عن المؤرخ هوليتشد لتاريخ انكلترا واسكوتلندا ، كما هو الحال في مسرحيات « مكبث» و« الملك لير » و« سمبلين » و « ريتشارد الثالث » . وعن المؤرخ الروماني بلوتارك ، كما في مسرحية « أنطوني وكليوباطرا » . وأضف إلى ذلك كله عمق تحليله للنفس البشرية ، فضلاً عن شاعريته الفياضة في تصوير المواقف التاريخية والعاطفية الخالدة ، حتى جعل من المسرح الإنكليزي فنّاً عالميّاً رفيعاً .

ومن المتفق عليه بين معظم الباحثين والدارسين أن ٣٨ من المسرحيات لا يشك في نسبتها إليه ، وأن مراحل إنتاجه الأدبي يمكن تقسيمها إلى مراحل أربع :

أولاهـا : (١٥٩٠ ـ ١٥٩٤) وتحوي مجموعة من المسرحيات التاريخية منها « كوميديا الأغلاط » و « هنري السادس » و « تيتوس أندرونيكوس » و « السيدان من فيرونا » و « جهد الحب الضائع » و « الملك جون » و « ريتشارد الثالث » و « ترويض النمرة » .

المرحلة الثانية : هي المرحلة الغنائية (١٥٩٥ ـ ١٦٠٠)

وتشتمل على معظم قصائده الشهيرة وبعض مسرحياته الخفيفة ، مثل « ريتشارد الثاني » و « حلم منتصف ليلة صيف » و « تاجر البندقية » التي ترجمت جميعاً إلى العربية مع بعض روائعه الشهيرة مثل « روميو وجولييت » و « هنري الخامس » و « يوليوس قيصر » و« كما تهواه » وقد ترجمت جميعاً إلى العربية أيضاً.

ومن مسرحيات هذه المرحلة كذلك « زوجات وندسور المرحات » و « ضجيج ولا طحن » .

المرحلة الثالثة : وهي أهم المراحل على الإطلاق ، إذ تمثل قمة نضوجه الفني ؛ فقد كتب فيها أعظم مسرحياته التراجيدية ، مثل « هاملت » و « عطيل » و« الملك لير » و« مكبث » و« انطوني وكليوباطرا » و« بركليز » و « كريولينس » و « دقة بدقة » ، وقد ترجم معظمها إلى العربية ، ومنها ما ترجم أكثر من مرة ، ومنها ما بلغ عدد ترجماته العشرة مثل « هاملت » .

ومن مسرحيات هذه المرحلة أيضاً « تيمون الأثيني» و « خير ما انتهى بخير » .

المرحلة الرابعة : وهي المرحلة التي اختتم بها حياته الفنية (١٦٠٩ ـ ١٦١٣) ، وقد اشتملت على مسرحيات « هنري الثامن » و « العاصفة » مما ترجم إلى العربية ، وعلى مسرحيتي « قصة الشتاء » و« سمبلين » .

وفي هذه المرحلة نجد العواطف النفسية العنيفة وقد خبت وتحولت في نفس الشاعر إلى نظرة تقبل ورضى وأمل وتأمل .

هذا وقد نسب بعض النقاد المتقدمين مؤلفاته إلى آخرين ، منهم الفيلسوف فرنسيس بيكون ، ومنهم إيرل اكسفورد . وقال

آخرون إنه من أصل عربي وإن اسمه جاء تحريفاً لاسم الشيخ زبير . وكلها أقوال لم تثبت بالأدلة القاطعة ولم يقم عليها الدليل العلمي وإن كانت هناك بحوث كثيرة في هذا الصدد . ولقد اشترك كثير من كبار الشعراء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جمع مسرحياته ونقدها ، وإن اختلفت وجهات النظر وتعددت أساليب النقد . ففي القرن الثامن عشر اعترض كتّاب من أمثال « دريدن » و « بوب » على ما اعتبروه إسراف شكسبير في الخيال والتعبير . أما شعراء القرن التاسع عشر من أمثال « كولريدج » فقد أعطوا الشاعر الكبير ما يستحقه من التقدير ، وكذلك الحال بالنسبة إلى نقاد القرن العشرين ، من أمثال « ت . س . اليوت » ممن أكدوا عالمية فنه وخلود أدبه .

هذا وقد كان لشكسبير أثره الكبير في آداب جميع الأمم على الإطلاق ، وتأثر به جميع الكتاب والشعراء والأدباء في كل البلدان وفي كل العصور ، في القارة الأوروبية وفي الأمريكتين وفي غير ذلك من القارات في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر خاصة ، وفي غير ذلك من القرون . أما في الأدب العربي فقد تأثر به كثير من الأدباء ، وترجمت معظم مسرحياته ، وقدمت في المسرح والسينما والإذاعة .

ونحن ، في دار الكتب العلمية ، إذ يسرنا أن نقدم إلى القراء الكرام أشهر مسرحيات شكسبير المعربة ، نتمنى أن يكون ذلك دافعاً لمزيد من التمازج والتلاقح بين الثقافة العربية العظيمة ومختلف الثقافات الأجنبية ، تمهيداً لإنشاء ثقافة إنسانية واحدة متكاملة . وما توفيقنا إلا بالله العلي العظيم .

شخصيات المسرحية

فردنند	: ملك نافار.
براون	:
لونغافيل	: أشراف في خدمة الملك.
دومين	:
بواييه	: شريفان في خدمة أميرة فرنسا.
ماركاد	:
دون أدريانو	: أسباني غارق في الأوهام.
دي أرمادو	:
السيد ناثنيال	: قسيس.
هولوفيرنز	: مدرس.
دول	: ضابط في البلاط.
كوستار	: مهرج.
موث	: خادم أرمادو.

حارس الغابة.

أميرة فرنسا

روزلين	}	:
مريًا	}	: وصيفات في خدمة الأميرة.
كترين	}	:
جاغينيتا		: بنت ريفية.

سادة ـ خدم ـ إلخ . . .

المكان: نافار.

الفصل الأول

المشهد الأول

حديقة ملك نافار

(يدخل فردننـد ملك نافار وبراون ولونغافيل ودومين)

فردنند : إن الناس كلهم يبحثون عن الشهـرة على توالي الأيـام، أما نحن فنخلّد في أبـداننا التي تسطّر عليهـا يـد المجـد آيـات البقـاء في ألـواح من نحاس لا يفنى أبداً، وهكذا فتضيء في ديجور الموت. فجدّنا وسعينا في هذه الحياة يخلصنـا من بـراثن الـزمن آكـل الجيف، وللزمن منجـل نصله بتـار، ولكن المجد يفـل منجـل الـزمن، ويورثنا الخلود، فيا أيها الغـزاة الأشاوس وإنكم حقـاً لغـزاة أشـاوس، يـا من تتغلبـون على شهواتكم وتصارعـون ملذات العالم وهي تحيط بكم كالجيوش، الجرارة، هكذا قضى قضـاؤنا الأخير، وهو نافذ ومبرم، بالتأكيد أن تكون نافار أعجوبة الدنيا. ولقد حولنـا هذا البـلاط مجمّعاً للعلمـاء، يسوده السكـون، وتملأه التـأملات، في كـل فن من الفنـون الحيـة وعلم من العلوم

السرمدية وأنتم يا رجالي الثلاثة، يا براون، دومين، وأنت يا لونغافيل، لقد أقسمتم أن تقيموا معي أعواماً ثلاثة. نهل فيها العلم معاً ونفي فيها بالعهود المدونة على هذه الأوراق. أما وقد انتهيتم من أداء القسم، فليوقع كل منكم باسمه على ما أقسم عليه، حتى يقضي بيده على شرفه إن هو نكث بيمينه ولو مقدار حبة خردل، فإن نويتم على أن تقوموا بما أقسمتم على عمله، فلتدوّنوا أسماءكم تحت أيمانكم المغلظة وأوفوا بالعهد وكونوا من الصادقين.

لونغافيل : لقد صح عزمي، إن هي إلا سنوات ثلاث من الصوم والزهد، سنوات ثلاث يشبع فيها العقل، ويذوي الجسد: فالبطون السمينة لها رؤوس صغيرة، والأكل الشهي يبني المناكب ولكنه يدمر العقول.

دومين : مولاي العزيز! إن دومين ميت بين الأحياء، وهو يُبعد عنه خسيس الملذات الدنيوية ويرفسها إلى الأرقاء الأخساء في هذه الدنيا الخسيسة، نعم، إنه يُبعد عنه الحب والجاه والمال، ولا أرى لي فيها حياة ولكنني أرى في الحياة الفلسفية متعاً

روحية أو عقلية تساوي هذه المتع جميعها.

براون : كل ما أقدر عليه أن أردّد ما أجبرونا عليه لقد أقسمت يا سيدي العزيز من قبل أن أحيا وأتعلّم هنا سنوات ثلاث، وليس هذا كل شيء، فهناك شروط شديدة قاسية أخرى نلتزم بها.

مثلاً: غير مُباح لنا أن نشاهد امرأة في هذه الفترة، وإني أتمنى أن لا يكون هذا الشرط مكتوباً هناك. وعلينا أيضاً أن نتوقف عن الطعام يوماً كاملاً كل أسبوع وعلينا في الأيام الأخرى أن نقنع بوجبة واحدة. وأتمنى ألا يكون هذا مكتوباً هناك أيضاً. كذلك مُنعنا أن ننام أكثر من ساعات ثلاث كل ليلة، وألا نغفو لحظة واحدة طول النهار. ولقد اعتدت أن أنام نوماً عميقاً هنيئاً طول الليل إضافة إلى نصف النهار. لهذا أتمنى ألا يكون هذا الشرط مكتوباً في هذه الوثيقة. تلك كلها فروض عميقة يصعب الوفاء بها: ألّا نشاهد النساء، وأن نتعلّم وأن نكفّ عن الطعام وأن نمتنع عن النوم.

فردنند : لقد أقسمت أن تترك كلّ هذه الأطايب والملذات.

براون : عفو مولاي، أنا لم أصنع، من ذلك شيئاً. أنا

لم أقسم سوى على شيء واحد، وهو أن أطلب العلم مع جلالتك، وأن أسكن في بلاطك سنوات ثلاث.

لونغافيل : بل أقسمت على ذلك يا براون، وعلى كل ما يليه من نتائج.

براون : أقسمت بلا ونعم يا سيدي، أقسمت هازلاً، أخبرني ما نفع الدرس؟

فردنند : أن نعرف ما لا نستطيع أن نعرفه دونه.

براون : أتعني ما استتر واستعصى على فهم وإدراك الناس الفطري؟

فردنند : أجل هذه هي النفحة الربانية التي وعدت للدارسين.

براون : إذا كان هذا هو العلم، عاهدتك أن أدرس حتى أعلم ما نهيت عن علمه. فإن حرمت علي أطايب المائدة درست لأعلم أين أجد طيب الطعام وإن اختفت الغانيات عن أنظار عامة الناس درست كيف أجد الغانيات الحسناوات. وإن أقسمت أغلظ الإيمان أن أفي بشيء تعلمت كيف أتحلل من قسمي دون أن أتحلل من إخلاصي. فإذا كانت كل هذه ثمرات الدرس وكان الدرس ما تصون، فإن الدرس

يثمر ما لم يثمره بعد. هيا، خذوا العهد مني،
فلن أضنّ بالعهد عليكم.

فردنند : إن ما قلت هو الحوائل التي تسكر درب العلم
وتعود أفهامنا الملذات الكاذبة.

براون : بل كل الملذات كاذبة. وأكذب الملذات هي
التي نشتريها بالأوجاع فلا نرث منها غير الوجع
والألم انظر إلى الكتاب: كم يتعذب فيه نور
العين باحثاً عن نور الحق، ونور الحق يغشي
نور العين. نور يفتش عن نور! فإذا النور يروغ
من النور، وقبل أن يميز مكان النور من العتمة
تفقد عينيك فيظلم نورك.

فلندرس إذن كيف نسرّ العين حقّاً، وسرور
العين أن تلتقي بعين أعظم منها حلاوة،
وجمالاً، غشي بصره ناظره فلم يبصر إلا العين
مصدراً للنور، ووهبته العين النور الذي أعشاه.
فالعلم إذن كالشمس المضيئة في السماء، لا
يصل إلى لبابها من تطلع فيها بوقاحة، وهكذا
لا يجد البحاثون الدائبون في كتب الغير غير
رأي الغير، ويا له من ربح خسيس. وراصد
الأفلاك مصابيح السماء، الذي يبتكر اسماً لكل
كوكب ثابت لا ينعم بضياء الليل أكثر مما ينعم

بـه الساري الـذي لا يعلـم من أمره شيئـاً. ومن أكثـر في طلب العلم لـم يجن شيئاً غيـر الشهـرة الجوفاء. فهـو يقف عند المـظهر دون اللبـاب، ومظهر الأشياء في متناول كل إنسان.

فردنند : إن قـراءتـه الـواسعـة قـد جعلتـه يحمـل على المطالعة.

دومين : ورسوخه في العلم جعله يهزأ من العلماء

لونغافيل : هو يقتلع الغرس ثم يدع ما اقتلع لينمو

براون : إن شـاهدت الإوز الأخضـر يفـرخ فـاعـرف أن الربيع قد أتى.

دومين : وما صلة هذا بما نتكلم به.

براون : صلة الزمان والمكان.

دومين : ولكنه غير معقول.

براون : إذن فقد تحكمت بي القافية.

فردنند : إن براون حسود. كالصقيع الذي يفتك ببـواكير الربيع.

براون : لـك ما تـريد. . أنـا كـذلـك إن أردت. فكيف يفخـر الصيف المتباهي قبـل أن يصدح الـطيـر وكيف أطرب للوليد الممسـوخ أتى قبل حينـه؟ فأنا لا أطلب الأزهار في زمهرير الشتاء، كما لا ألتمس الثلوج في جنة الربيع الزاهية. بل أحب

من الأشياء ما أتى في حينه، وطلبكم العلم الآن قد تعدى أوانه كمن يتسلق السور العالي ليفتح باب الدار المنخفض.

فردنند : إذن فأنت تعتزل يا براون، هيا اذهب إلى منزلك. صاحبتك السلامة!

براون : كلا يا مولاي، لقد حلفت أن أقيم معك. وبالرغم من أنك تستطيع القول إني قد أفضت في الدفاع عن شيطان الجهل بأكثر مما أفضت في الدفاع عن ملاك المعرفة، فإني متأكد من احترامي لقسمي، وسوف أقوم بالتفكير سنوات ثلاث يوماً بيوم. هاتِ الورقة لأقرأها، وسأوقع باسمي على أشد ما فيها من شروط.

فردنند : إن هذا القبول ليخلصك من العار.

براون : يتلو المادة الأولى: «غير جائز أن توجد امرأة على بعد يقل عن ميل من قصرنا» هل أذيع هذا القرار؟

لونغافيل : نعم، منذ أربعة أيام

براون : فلنقرأ العقوبة (يقرأ): «وإلا جوزيت بقطع لسانها». من هو الذي وضع هذه العقوبة؟

لونغافيل : قسماً إنني أنا الذي وضعتها.

براون : وما سبب وضعها يا سيدي العزيز؟

لونغافيل : لنخيف النساء بهذه العقوبة الرادعة فلا يقربن هذا المكان.

براون : هذا نظام خطر يتعارض مع الذوق والآداب (يقرأ) المادة الثانية: «إذا شوهد رجل يتكلم مع امرأة خلال ثلاث سنوات حكم عليه بقية رجال البلاط بما يرونه لينزل من مكانته في عيون الناس». لا بد لك يا مولاي من أن تزيل هذا النظام. فأنت تدري حق الدراية أن ابنة ملك فرنسا، وهي فتاة ذات جمال وجلال، قادمة إلى هذا البلاط في سفارة لتفاوضك في أمر تسليم «آكويتين» لوالدها الشيخ المريض المقعد طريح الفراش. وعلى هذا فقد وضعت هذه المادة بدون نفع أو أن الأميرة الجميلة تسعى إلينا عبثاً.

فردنند : ما قولكم أيها السادة؟ لقد نسينا أمرها تماماً.

براون : إن المبالغ في التدبير يجاوز الهدف. فهو في حرصه على تحقيق مراده المنشود ينسى أداء الواجب المحدود. وما أن يصل إلى منتهى مراده حتى تضيع ثمرات كفاحه وجهاده، كالمدينة تخسرها حين تغلبها، تفتحها بالحديد والنار، فإذا هي أنقاض من خراب ودمار.

فردنند : لا مناص إذن من إلغاء هذا القرار. لا بد أن تقيم الأميرة بيننا بحكم الضرورة.

براون : الضرورة ستضطرنا جميعاً إلى أن نتعدى جميع الأحكام ثلاثة آلاف مرة خلال ثلاثة أعوام. إن كل من على الأرض يولد ومعه ميوله، لا تحكمه القوة ولكن تسيره رغباته. فإن حنثت بالقسم فاعرفوا أن الذي حنث هو طبعي. فأنا لا أحنث إلا بحكم الضرورة. فاعطوني إذن أحكامكم جميعها أوقع عليها. (يوقع)
ومن يتعدى هذه القوانين ولو في أصغر صغيرة استحق أن يلحق به العار الأبدي. إن المغريات تحيط بسواي من الناس كما تحيط بي، ولكني أعتقد أني سوف أكون آخر من يتعدى هذا العهد. أما الآن وقد انتهينا، أما عندكم متعة سريعة نروح بها عن النفس؟

فردنند : نعم، عندنا أنت تعرف أنه يتردد على قصرنا رحالة إسباني، وهو رجل ذو رقة مرهفة يلم بكل ما هو جديد في عالم السلوك. رجل يتفنن في ابتكار الألفاظ كأن رأسه دار لسبك العبارات، رجل يصغي لنفسه وينصت لكل ما ينطق به لسانه من كلام أجوف فيثمل منه كأنه أعذب

الأنغام، رجل مهذب قادر على أن يفرق بين الحق والباطل إذا اختلف فيهما. واسم هذا الرجل رضيع الهواجس والأوهام السيد أرمادو. وسوف يروي لنا، أثناء أوقات الدرس، أجمل الروايات، في أعذب كلام عن بطولات الفرسان الذين خرجوا جماعات من إسبانيا، موطن المسوح والرهبان، ثم تاهوا في الكفاح الأكبر الذي التهم الدنيا، ولست أدري، أيها السادة، هل يسركم حديثه أم يزعجكم، أمّا أنا فأعترف لكم بأني أحب أن أستمع لأكاذيبه، ولسوف أجعل منه الشاعر الذي يطربني بأغانيه.

براون : إن أرمادو امرؤ ذائع الشهرة، طريف الحديث، وهو فارس الفرسان في كل مستحدث وجديد.

لونغافيل : إذن سنجعل منه ومن كوستار الفرح سلوتنا، وهكذا تمضي سنوات الدراسة سريعاً ونسعد بهما أوقاتنا.

(يدخل الضابط دول حاملاً رسالة ومعه المهرج كوستار)

دول : من منكم الأمير؟

براون : هذا السيد، وماذا تبغي منه؟

دول : أنا أمثله، كَوْني ضابط في خدمة سموه، ولكني أود أن أشاهده بشخصه لا باسمه.

براون : هذا هو.

دول : السنيور أرما ـ أرما يهديك السلام ويقول إن الفساد قد استشرى خارج نافار. وها هي ذي رسالته تشرح التفاصيل.

كوستار : أما محتوى هذه الرسالة فيمسني.

فردنند : هذه رسالة من أرمادو العظيم

براون : مهما يبلغ موضوعها من التفاهة، فأملي أن تكون لغتها بليغة.

لونغافيل : أمل كبير، في شيء حقير، ألهمنا الصبر يا الله..

براون : لنستمع إلى كلامه، أو لنتوقف عن الضحك منه.

لونغافيل : لنسمع بإقبال ونسخر في اعتدال، أو نتوقف عن هذا وذاك.

براون : فلننتظر إذن يا سيدي لنسمع ما في بلاغة السيد أرمادو من فكاهة.

كوستار : مسألتي، يا سيدي تختص بالفتاة جاغينيتا وظروف الأمر أنني قد ضبطت متلبساً شكلاً وموضوعاً.

براون : وكيف كان ذلك

كوستار : يتلخص الشكل والموضوع في الأمور الثلاثة التالية: شاهد الناس وجهي مع وجهها في الساحة. هذا من ناحية الشكل. أما موضوعاً فقد كنا جالسين على المقعد الكبير وحين ضبطتُ كنت أسير خلفها في الحديقة. وهكذا يتفق الشكل والموضوع. أما الشكل يا سيدي فهو شكل رجل يتكلم مع امرأة، وأما الموضوع فهو موضوع رجل يتكلم معها، في موضوع ما.

براون : أهذا لأنك لحقتها

كوستار : نعم، كما تلحقني العقوبة، والله يحق الحق.

فردنند : هلّا أصغيتم جيداً لهذه الرسالة؟

براون : كما نصغي لقارىء الغيب.

كوستار : ما أضعف الإنسان حين يصغي لنداء الجسد.

فردنند : (يقرأ) «أيها الخليفة العظيم! يا ظل الله على الأرض! أيها الحاكم بأمر السماء! يا سيد نافار بلا شريك! يا معبود روحي في الأرض ويا مطعم جسدي!».

كوستار : لم يصل الكلام بعد إلى كوستار

فردنند : (يقرأ) هذه هي الحقيقة.

كوستار : ربما كانت هذه هي الحقيقة، ولكن إذا كان

أرمادو قد قالها، فهو لا يقول الحقيقة.

فردننذ : اهدأ يا رجل.

كوستار : فلتهدأ روحي وروح كل من يخاف القتال.

فردننذ : سكوت. !

كوستار : أبتهل إليك ألا تتكلم في أسرار الناس.

فردننذ : (يقرأ) «الحقيقة أني وقد حاصرتني الهموم الحالكة من كل صوب فقد رأيت شفاء هذا الضيق، الدامس في التماس هوائك النقي. ولما كنت من السادة الأشراف، خرجت ألتمس التنزه على الأقدام. وفي أي زمان كان ذلك؟ عند الساعة السادسة حين يقبل الحيوان على المرعى، وتكثر الأطيار من النقر، ويجلس الناس إلى طعامهم ذاك الذي يدعونه عشاء. هذا ما كان من أمر الزمان. بعد هذا نسأل: في أي مكان كان ذلك؟ أقصد في أي مكان كان تنزهي؟ في المكان الذي يدعونه حديقة الملك. ثم الأين؟ أعني أين رأيت ذلك الحدث السخيف المعيب الذي يستدر من يراعي الطاهر الناصع نصوع الثلوج من الحبر الأسود الذي تلحظه الآن أو تبصره أو تتمعن فيه أو تراه. أما عن الأين، أين كان المكان؟ فهو

الشمال الشرقي شمالاً في اتجاه الشـرق، من الـركن الغـربي من حـديقتـك ذات الأحـواض المـرتبة العجيبـة، هناك أبصـرت ذلـك الجلف السافل، ذلك القرموط المهرج في قصرك.

كوستار : أنا؟

فردنند : ذلك الأمي الجاهل.

كوستار : أنا؟

فردنند : «ذلك العبد التافه التفكير».

كوستار : هل يعنيني أنا؟

فردنند : «واسمه على ما أذكر كوستار».

كوستار : أنا هو!

فردنند : أبصرته يخرج متحدياً قانون العفة النـافذ الـذي أصـدرته للنـاس... أبصرتـه، أبصرتـه يخرج مـع.... مـع.... يـا لهـول النكبـة.... مع....».

كوستار : مع بنت

فردنند : مع طفلة من أطفال جـدتنا حـواء. أي بصـريح الكـلام. مع امـرأة. لهذا سيّـرتـه إليـك ليلقى عقابه الـرادع على يدي انـطونيو دول، الضـابط في خدمة جـلالتك، وهـو رجل حسن السمعـة

والسلوك. جيد التصرف، محترم في عيون الناس».

دول : أنا هو يا صاحب الجلالة، إذا تعطف مولاي، أنا انطونيو دول.

فردنند : «أما عن جاغنيتا، وهذا اسم المخلوقة الضعيفة، فقد قبضت عليها مع هذا الجلف، وهي الآن تحت يدي لتكون تحت مخالب قانونك المنتقم الرهيب. وإذا تعطف مولاي وأشار إلي بأدنى إشارة، قدمتها فوراً للمحاكمة. وأنا خادمك الساهر في طاعتك المتأجج القلب في أداء واجبك.

(دون ادريانو دي ارمادو)

براون : ليس هذا حسناً كما توقعت، ولكنه أجود ما سمعت.

فردنند : بالنسبة إلي هو أجمل وصف لأشنع فعل. ولكن ما قولك يا فتى، في هذه التهمة.

كوستار : أنا أعترف يا مولاي بقصة الفتاة.

فردنند : هل سمعت بالقانون الذي أُصدر.

كوستار : نعم، أعترف بأنه كثيراً ما أذيع ولكنه، أطْوَع قليلاً.

فردنند : لقد أعلن على الناس أن من يضبط مع بنت يعاقب بالسجن سنة.

كوستار : أنا لم أضبط مع بنت يا مولاي... فقد ضبطت مع آنسة.

فردنند : هذا ما نصّ عليه القانون: من يضبط مع آنسة.

كوستار : إنها لم تكن آنسة يا مولاي، بل كانت عذراء.

فردنند : وهذا أيضاً ما نص عليه القانون. قال عذراء.

كوستار : إذا كان الأمر كذلك، فأنا أنكر أنها كانت عذراء. لقد ألقوا القبض عليّ مع فتاة.

فردنند : لن تفيدك هذه الفتاة، في شيء يا سيدي.

كوستار : بل إن هذه الفتاة، ستفيدني يا مولاي.

فردنند : سأنطق بالحكم عليك يا سيدي: أحكم عليك بالصوم على الماء والنخالة لمدة أسبوع.

كوستار : أفضل أن أرجوك بالحكم عليّ بالصوم شهراً مع اللحم والعصيدة.

فردنند : وسوف يكون دون أرمادو سجّانك. هيا يا سيد براون. تول أمر تسليمه للسجان. ولنذهب أيها السادة لتنفيذ ما كنا قد اتفقنا عليه.

(يخرج الملك ولونغافيل ودومين)

براون : أراهن برأسي أمام الجموع. أن هذه الدساتير

والقـوانين سوف يهـزأ منها النـاس. هيـا بنـا يـا غلام.

كوستار : أنـا شهيـد الحق. لأني حقيقـة، ضبـطوني مـع جـاغينيتا، وجـاغينيتا بنت حقّاً كلهـا إخـلاص ووفاء. مرحى إذن بكأس السراء المريرة، فقـد تبتسم لي يوماً مرة أخرى شمس الضـراء، وإلى أن يأتي ذلك اليوم، فلتسقط الأحزان.

(يخرجان)

المشهد الثاني

(ذات المشهد)

(يدخل ارمادو وتابعه)

أرمادو : يا غلام! إن حصل وشاهدت رجلاً مرحاً قد أطبقَتْ عليه الكآبة، فما دلالة ذلك؟

موث : دلالته عظيمة تقرأ في سيمائه وهي الحزن.

أرمادو : ما الحزن وما الكآبة، إنهما شيء واحد. يا غلامي العزيز.

موث : كلا، ثم كلا.

أرمادو : وكيف تفرق بين الحزن والكآبة، أيها الشاب الرقيق؟

موث : باختبار مألوف يظهر أثر كل منهما، أيها الشيخ القديم.

أرمادو : الشيخ القديم؟ ولم تدعوني بالشيخ القديم؟

موث : ولم تدعوني أنت بالشاب الرقيق؟

أرمادو : دعوتك بالشاب الرقيق لأن هذه صفة ملائمة تنطبق على حداثة سنك التي يمكن أن نصفها بالرقة.

موث : وأنا قد دعوتك الشيخ القديم لأن هذا ينطبق

على كبر سنك الذي يمكن أن نصفه بالقِدَم.

أرمادو : إن هذا جميل ودقيق.

موث : وماذا تقصد بقولك جميل ودقيق يا سيدي؟ هل تقصد أني جميل وكلامي دقيق؟ أم تقصد أني دقيق وكلامي جميل؟

أرمادو : بل أقصد أنك جميل لأنك صغير.

موث : إذن فأنا جميل صغير لأني صغير. وفيم قد رأيت دقتي؟

أرمادو : وأنت دقيق لأنك سريع.

موث : أهذا إطراء منك وثناء علي يا سيدي؟

أرمادو : أجل، فأنت تستحق هذا الثناء والإطراء.

موث : وإني لأثني على ثعبان السمك هذا الثناء ذاته.

أرمادو : وهل ثعبان السمك سريع البديهة؟

موث : إن ثعبان السمك سريع الحركة.

أرمادو : أنا رميت إلى أنك سريع الإجاب إنك تثيرني.

موث : أنا اقتنعت، يا سيدي

أرمادو : وأنا امقت النقد.

موث : (لنفسه) هذا معاكس للواقع، فالنقد يكرهه.

أرمادو : لقد وعدت أن أدرس مع الأمير ثلاث سنوات.

موث : بمقدورك أن تنتهي من هذا الدرس في ساعة.

أرمادو : هذا مستحيل.

موث : كيف يكون الواحد إذا حُسب ثلاث مرات؟

أرمادو : أنا في الحساب ضعيف، فهو يليق بأصحاب الحانات.

موث : وأنت سيد مقامر.

أرمادو : أعترف بكليهما، فهما الصفتان المميزتان للرجل المهذب.

موث : إذن لا بد أنك تعرف مجموع «دو ـ يك» في النرد.

أرمادو : مجموعهما أكثر من اثنين بواحد.

موث : أي بلغة عامة الناس هما ثلاثة.

أرمادو : صدقت...

موث : أهذه مشكلة؟ لقد درست العدد ثلاثة قبل أن تغمض عينك ثلاث مرات. أضف كلمة سنوات إلى كلمة ثلاثة. بمنتهى اليسر هكذا تدرس ثلاث سنوات في كلمتين. إن شئت أن تتعلم الحساب فاذهب إلى الجواد الرياضي «مراكش».

أرمادو : هذا كلام جميل.

موث : وهو يثبت أنك صفر.

أرمادو : هنا أنا أعترف بأني عاشق. يقولون عار على

الفارس أن يعشق، لذلك عشقت امرأة معيبة، وإذا كان استلال الحسام في وجه الغرام ينقذني من هواجسه الشريرة، فستقع الشهوة أسيرة، بقبضتي أطلق سراحها لمن أراد من رجالات فرنسا إذا هو دفع الفدية، والفدية التي أطلبها هي درس جديد في أداء التحية. أنا أحتقر آهات المحبين، وسوف أصمت كيوبيد بوابل الإيمان. هيا خفف عن نفسي يا غلام، قل لي: من هم الأبطال المحبين؟.

موث : هرقل هو واحد منهم يا سيدي

أرمادو : هرقل حبيبي، ومن سواه تعرف من أساتذة الحب والغرام؟ اذكر سواه، تكلم يا غلامي العزيز، ولا تذكر إلا من ذاعت شهرته واشتد احتماله.

موث : شمشون يا سيدي. فقد كان شمشون رجلاً شديد الاحتمال إلى حد أنه قد حمل باب المدينة على ظهره كالحمال. نعم، كان شمشمون من أهل العشق والغرام.

أرمادو : أي شمشون! يا قوي العضلات! أي شمشون! يا قوي المفاصل! أنت تفضلني في حمل الأبواب، ولكني أفضلك في حمل السيف! وأنا

مثلك من أهـل العشق والغـرام. قـل لي يـا عزيزي موث، من شغل قلب شمشون؟

موث : امرأة يا سيدي

أرمادو : وما لونها؟

موث : كانت لها الطبائع الأربعة، وكـانت لها أحيـاناً ألـوان ثلاثـة. وأحيانـاً تتلون بلونين اثنين. وفي بعض الأحيـان كان لهـا لون واحـد من الألـوان الأربعة.

أرمادو : بل حدد من أي لون كانت هي؟

موث : كان لونها كالبحار الخضراء يا سيدي

أرمادو : وهـل اللون الأخضـر هـو من ألـوان المـزاج الأربعة؟

موث : نعم يا سيدي، هذا ما قرأته، بل اللون الأخضر أجملها جميعاً.

أرمادو : هـذا صحيـح، فـالأخضـر هـو لـون المحبين. ولكن العجيب أن يتخـذ شمشون لنفسـه حبيبـة خضراء. لا ريب أنه عشقها لذكائها.

موث : أجل يا سيدي، فقد كان ذكاؤها لم ينضج بعد.

أرمادو : أما حبيبتي فهي بيضاء حمراء لا زرقة فيها.

موث : وخلف هذه الألوان الطاهرة يـا سيدي. تستتـر أكثر الأفكار العاهرة.

أرمادو : فسّـر كلامـك. أوْضـح عمـا تقـول يـا غـلامي العلامة!.

موث : يا ذكاء أبي! ويا لسان أمي! أنجداني!.

أرمادو : هـذا طلب نجدة جميـل من طفل. هـو جميـل وهو يهز المشاعر.

موث : إن كان لونها أبيض مشوباً بحمرة، فإن أحداً لن يعرف قط ذنوبها لأن الذنـوب تبعث في الخدود حمـرة الخجـل وينم عن المخـاوف البيـاض الضارب إلى الصفرة. ولذا فإنها إذا وجلت، أو فعلت ما يوجب اللوم، فإنك لن تلاحظ من هذا شيئـاً لأن وجنتيهـا تحتفـظان على الـدوام بلون واحد هو الذي نفحتها الطبيعة. هذا شعر ينـدد بـالإسـراف في استخـدام المسـاحيق الحمـراء والبيضاء.

أرمادو : قل لي يا غـلام: ألـم تسمع بـأغنية عن «الملك والشحاذة».

موث : كانت هناك أغنية بهذا المعنى منذ ثلاثة أجيال، وكـانت وصمة في جبين زمـانها، ولكني أعتقـد أن هـذه الوصمـة قد زالت، وإذا فـرض أنها لا تزال متداولة، فإن لحنها وكلامهـا لا يُعبران عن عاطفتك.

أرمادو : سأجعل الشعراء ينظمون في هذا الموضوع من جديد، كي أقيس غرامي المعيب بغرام ذلك الملك العظيم. اسمع يا غلام، أنا أحب البنت الفلاحة، تلك التي ضبطتها في الحديقة بصحبة ذلك الجلف الذكي كوستار وهذه البنت تستحق حبي.

موث : (لنفسه) بل هي أهل للسياط. ومع ذلك فهي جديرة بحبيب أفضل من سيدي.

أرمادو : هيا، غن لي يا غلام، ففؤادي مثقل بأشجان الحب والغرام.

موث : عجباً! كيف يثقل قلبك لفتاة لا وزن لها.

أرمادو : قلت غن.

موث : فلنمسك عن الغناء حتى يذهب القادمون.

(يدخل الضابط دول وكوستار والبنت جاغينيتا).

دول : يا سيدي، اسجن بأمر الملك كوستار، وابعد عنه كل متعة، بل احبس عنه متعة التفكير، كما عليه أن يصوم ثلاثة أيام كل أسبوع. أما هذه الآنسة، فإن عليّ أن أسجنها في الحديقة، لتعين حالبة اللبن.

أرمادو : الدم يصعد إلى وجنتي فيفضح غرامي. يا فتاة!

جاغينيتا : يا رجل!

أرمادو : سأزورك في المنزل
جاغينيتا : إن هذا ليس ببعيد.
أرمادو : أنا أعرف موقعه.
جاغينيتا : يا للجرأة!
أرمادو : سأروي لك العجائب.
جاغينيتا : هل هذا صحيح؟
أرمادو : أنا أحبك.
جاغينيتا : سمعتك تقول ذلك.
أرمادو : والآن وداعاً.
جاغينيتا : رافقتك السلامة.
دول : هيا نذهب يا جاغينيتا

(يخرجان)

أرمادو : أيها النذل، لا بد أن تصوم تكفيراً عن جريمتك قبل أن تحظى بالعفو.
كوستار : أرجو إذن أن أصوم، حين أصوم، بعد وجبة هنيئة.
أرمادو : جزاؤك عندي أليم.
كوستار : أنا ألصق بك من كل خدمك، جميعهم، لأن جزاءهم عندك أخف من جزائي.
أرمادو : خذوا هذا النذل وألقوه في السجن.
موث : هيا أيها العبد المجرم. إلى السجن.

كوستار : لا تدخلوني السجن يا سيدي. إن أخليت سبيلي صمت عن الطعام.

موث : كلا يا سيدي، إن ذلك يكون خيانة منا، لا مناص من سجنك.

كوستار : لو رأيت ما قد رأيت من أيام الهناء، فسوف يشاهد الغير مني...

موث : وماذا يبصر الغير مني؟

كوستار : لن يرى غير ما يقع عليه نظره، يا سيد موث. إذ أن السكوت ليس من شيم السجناء، ولهذا سوف أتوقف عن الكلام. والحمد لله إن صبري قليل كصبر سواي من الناس، ولهذا أستطيع الصمت.

(يخرج موث وكوستار)

أرمادو : أنا أعشق الأرض التي تسير عليها، وهي دنيئة، الأرض التي تدوسها بحذائها، وهو أحقر، كلما تحرك في حذائها قدمُها، وهي أسفل من هذه وتلك، سأنتهي عن الهوى إن كنت أحب، وهذا الدليل الأكبر على كذبي. وكيف يكون الحب صادقاً إذا كان دربه كاذباً؟ الحب شيطان يلازم الإنسان، الحب إبليس، وليس بين ملائكة السماء ملاك شرير غير ملاك الحب.

ومع ذلك فقد حقّر الحب شمشون، وهو القوي الجبار، وفتن الحب قلب سليمان، وهو كبير الحكماء. إن سهم كيوبيد المثلم لأقوى من عصا هرقل، فهو من باب أولى أقوى من المهند الإسباني. والسببان الأول والثاني، من الأسباب التي تدعو إلى النزال لن يكفياني. كيوبيد غلام جموح: هو لا يأبه بأسباب القتال، وهو لا يعرف قوانين النزال، فهو لا يعبأ بقواعد النزال.

أكبر عيب عنده أن تدعوه بالغلام، ولكنه يفخر بأنه يصرع أقوى الرجال. وداعاً إذن أيتها الشجاعة! وأنت أيها السيف! اصدأ في جرابك! اخرسي يا طبول الحرب على الدوام، فقارعك قد وقع في شرك الغرام. نعم، فهو عاشق ولهان. يا إلّه الشعر، ألهمني، فإني أوشك أن أرتجل القصيد! تفتق يا خيال، وسجّل يا يراع فإن في قلبي مجلدات من الشعر!.

(يخرج)

الفصل الثاني

المشهد الأول

(تدخل أميرة فرنسا، ومعها وصيفاتها الثلاث، مريا وكترين، وروزلين، ومعهن بواييه، ونفر من الأشراف وأتباعهم)

بواييه : والآن يا سيدتي، استجمعي أعظم ما نفحتِ من ذكاء واعرفي، من ذا الذي أرسله والدك الملك موفداً عنه، وإلى من أرسل هذا الموفد، وما هي رسالته. أنت هو هذا الرسول الذي يحترمه كل من في العالم، وقد أتيتِ لتفاوضي الرجل الذي اجتمعت له وحده كل ما يستطيع أن يجتمع لإنسان من سجايا وفضائل. أتيتِ لتفاوضي سيد نافار الذي لا يشق له غبار، أتيتِ لتطلبي «آكويتين» الغالية مهراً لملكة غالية. كوني إذن كريمة بالمكرمات كما كرَّمتك الطبيعة بالجمال، حينما حرمت منه جميع الأنام، وأغدقته كله عليك وحدك.

الأميرة : أيها السيد الكريم بواييه، إن جمالي القليل هذا لا يحتاج منك كل هذا الإطراء المنمق. إنما العيون المتفحصة هي من تعرف قدر الجمال،

فهو ليس سلعة رخيصة تنادي بها ألسنة التجار.
فاعلم إذن أن افتخاري حين أسمعك تطري
جمالي وبهائي هو أقل من حرصك الشديد
على أن يعترف الناس لك بالذكاء حين يتفتق
ذكاؤك هذا في الثناء علي. والآن فلنبحث عن
عمل ذلك الذي يريد أن يعلمنا ما نعمل. أيها
السيد الكريم بواييه، أنت لا تجهل أن
الشائعات خارج البلاد تجري على كل لسان
بأن ملك نافار قد عاهد نفسه عهداً بألا تزعج
امرأة هدوء وسكون قصره، حتى تنقضي سنين
ثلاث، من الدرس المضني. لهذا يظهر أنه لا
بد لنا قبل أن نجتاز أبوابه المحرمة، أن ندرك
مراده. ولهذا الغرض قد اخترناك، واثقين من
مقدرتك، لتكون المتكلم البليغ بلساننا. قل
للملك أن ابنة ملك فرنسا قد أتت تطلب قضاء
أمر عاجل خطير، وهي تريد الاجتماع شخصيّاً
بجلالته، هيا، أسرع، وانقل إليه هذا الكلام،
ونحن هنا وقوف في انتظار أمره العالي، وقوف
السائل الخاشع.

بواييه : هذا شرف عظيم لي، وإني ذاهب بكل سرور.

(يخرج بواييه)

الأميرة : كل ما نفعله برضا يشرفنا وهذا شأنك الحين والآن، يا سادتي الأوفياء، من يكون هؤلاء النساك الذين أقسموا مع هذا الملك الصالح أن يشاطروه متاعب الدرس؟

السيد الأول : السيد لونغافيل هو أحدهم.

الأميرة : أتعرفين هذا السيد؟

مريا : أجل، يا مولاتي، أعرفه، فقد شاهدت لونغافيل هذا يوم أن احتفل في نورمنديا بزفاف السيد النبيل بريغور على الهيفاء الفاتنة وريثة جاك فالكونبريدج. وهو رجل اشتهر بسمو خصاله، فهو نابغ في الفنون وذكي في الحروب، لا يثنيه شيء إذا حسنت نيته في عمله، ولا تشوب فضائله الناصعة، شائبة إن أمكن للشوائب أن تشوب الفضائل الناصعة، إلا شدة في النباهة،لا يعبأ معها بشعور غيره. وقد وصلت به حدة ذكائه أنه يمزق كل إرادة تعترض سبيله ويسحق كل ما يقابله. فذكاؤه حاد يمزق كل شيء وإرادته صلبة لا ترحم من يقع تحت سلطانه.

الأميرة : يظهر أنه سيد مرح ساخر. أهذا ما تقصدين؟

مريا : هذا ما يقوله أكثر الناس معرفة بطباعه.

الأميرة : مثل هذا الذكاء القصير الأجل يذوي قبل أن يينع. ومن يكون السادة الآخرون؟

كترين : الفتى دومين، وهو شاب مهذب أحسن التهذيب، فهو يعشق الفضيلة لذاتها، له من المقدرة ما يستطيع أن ينشر بها الشر والأذى، وإن كان لا يعرف للأذى معنى. وله من الذكاء ما يبدو معه الشر خيراً. ويكسب الشيء جمالاً، وإن كان جمالاً لا عقل له شاهدته ذات مرة في قصر الدوق ألنسون، فرأيت من فضائله العظيمة ما يعجز لساني عن وصفه لمولاتي.

روزلين : وإذا كان ما سمعته حقيقة فقد كان برفقة الملك فتى آخر ممن يطلبون العلم، واسم هذا الفتى براون، ولم أقض قط ساعة مع إنسان أكثر منه لهواً ومرحاً، ولكن مرحه لا يتجاوز الحدود قط. وإن عينه لتخلق أسباب دعابته، فكل ما تقع عليه تلك تجعل منه هذه فكاهة ينطق بها لسانه الحلو في أحلى كلام وأجمل عبارة. وقد بلغ من فيض سحره أن يدع الشيوخ أشغالهم ليستمعوا إلى قصصه، وحكاياته، أما الشباب فيفتنهم بحديثه العذب السلس.

الأميرة : بارك الله في سيداتي، فهن جميعاً عاشقات

وكلٌّ منهن تدبج لرجلها أجمل آيات الإطراء،
وتحلّيه بدرر الثناء.

السيد الأول : ها هو ذا بوابيه آتٍ إلينا.

(يدخل بوابيه)

الأميرة : كيف استُقبلت يا سيدي؟

بوابيه : إن ملك نافار قد علم بمجيئك الميمون وقد كان يستعد، مع من اشتركوا معه في قسمه، للقاء سيدتي الكريمة قبل أن أحضر إلى هنا. وقد عرفت من نوايا الملك أنه يريد منك أن تقيمي في الحقول خارج بلاطه كأنما أتيت لتحاصري قصره، بدل أن يطلب التحلل من قسمه فيدعوك إلى قصره الخالي من الخدم والحشم.
ها هو ذا ملك نافار قادم نحونا.

(يدخل فردنند ملك نافار ولونغافيل
ودومين وبراون وأتباعهم)

فردنند : سيدتي الحلوة، أهلاً بك في بلاط نافار.

الأميرة : الجمال أرده عليك يا سيدي، أما مقامي بالبلاط فلم يتم بعد. إن سقف هذا الفِناء رفيع لا يوافقك، ومقامي بهذه الحقول الشاسعة حطة لا تليق بي.

فردنند : أهلاً وسهلاً في بلاطي

الأميرة : إذن فـأنت حقيقـة، تـرحب بي! هنـا، أرني السبيل.

فردنند : أيتها السيدة العزيزة، استمعي إلى كـلامي لقد عاهدت نفسي عهداً.

الأميرة : وسوف تنكث بالعهد، ولتصفح العذراء عنك.

فردنند : كلا، ولو أعطيت ملك الدنيا يا سيدتي الحلوة، لن أنكث بالعهد راضياً.

الأميرة : إرادتي ستتغلب على يمينـك، ولا شيء غيـر هذا.

فردنند : إن سيدتي تجهل موضوع القسم

الأميرة : لـو أن سيدي جهله كـذلك لأصـاب من الجهل حكمة. أما الآن فحكمته ستولد جهالة. أجـل، لقد سمعت أن جلالتـك أقسمت أن تتخلى عن جـود الضيافـة. وبرأيي أن حنثـك بهـذا القسم خطيئة، ولكن وفاءك به خطيئة أعـظم. غير أني أطلب صفحك يا سيـدي، فقد اجتـرأت عليك بلا تريث، ومـا كان لي أن أعلّم معلّمـاً مثلك. والآن تعـطف يـا سيـدي واقـرأ سبب قـدومي، واستجب فوراً لطلبي.

فردنند : سأفعل ذلك يا سيدتي، إن عرفته حالاً.

الأميرة : سـوف تتمنى رحيلي بالتـو، فلو أنك استبقيتني لحنثت بقسمك.

براون : ألم أرقص معك مرة في برابانت.

روزلين : ألم أرقص معك مرة في برابانت؟

براون : أجل، أنا متأكد من ذلك.

روزلين : سؤالك إذن في غير محله.

براون : بديهتك سريعة فاكبحيها.

روزلين : أنت الذي لكزتها بأسئلتك.

براون : ذكاؤك ملتهب، ذكاؤك جارٍ بلا زمام، ولن يلبث أن يتعب.

روزلين : ولن يتعب حتى يلقي براكبه في الوحل.

براون : كم الساعة الآن؟

روزلين : الساعة التي يحب أن يسأل عنها البلهاء.

براون : والآن، بورك في قناعك.

روزلين : بل بورك في الوجه الذي يخفيه.

براون : وليجيئك كثير من العشاق.

روزلين : آمين، على ألا تكون أنت منهم.

براون : إذن سأذهب.

فردننذ : إن والدك يا سيدتي، يقول هنا بأنه قد دفع مائة ألف كراون، وهي لا تنيف على نصف ما أنفقه والدي، في تمويل حروب والدك. فاعلمي إذن أن هذا المال لم يصل إلى يد والدي، فإذا سلمنا أنه أخذه أو أنني أخذته ـ وأقول هذا لأن

أحداً منا لم يأخذه ـ فإنه يبقى إذن مائة ألف أخرى لم يتم دفعها إلينا. وهي التي أخذنا نصف ولاية آكويتين رهناً لها، وإن كانت آكويتين لا تساوي كل هذا المال. فإذا أراد والدك الملك أن يعيد لنا ذلك النصف الآخر الباقي في ذمته، نزلنا له عن حقنا في آكويتين، وتعاهدنا على الصداقة مع جلالته. ولكن يظهر أنه لا ينوي أن يفعل شيئاً من ذلك، فهو هنا يطلب إعادة مائة ألف كراون، ولا يعرض الوفاء بمائة ألف كراون مقابل استعادة حقه في آكويتين، وهي ولاية كم نود أن ننزل عنها وأن نستعيد المال الذي أدانه والدي لوالدك بدلاً من آكويتين هذه الممزقة على هذا الشكل. فيا أيتها الأميرة العزيزة! لو أن والدك لم يتجاوز حدود العقل فيما يطلبه، لتجاوزت أنا حدود العقل فيما أعطي إكراماً لجمالك، لترجعي إلى بلادك فرنسا راضية مرضية.

الأميرة : إنك تسيء إلى والدي إساءة شديدة، وتسيء كذلك إلى سمعتك، حين يظهر منك أنك تنكر أخذ المال الذي أُعيد إليك بأمانة تامة.

فردنند : بل أؤكد لك أني ما علمت بذلك، ولو أقمت

الأدلة على ما تقولين لأعدت إليه مالـه أو أعدت
إليه آكويتين.

الأميرة : ونحن نأخذك بوعدك: أنت يا بواييه تستطيع أن
تبـرز الـوثـائق التي تثبت وفـاءنـا بهـذا المــال
لمـوظفي والـده الملك شـارل، المعينين لهـذا
الغرض.

فردنند : إليّ بالأدلة.

بواييه : أمهلني يـا مـولاي، فـالأوراق التي تثبت هـذا
وغيره لـم تصل بعد. في الغد تراها.

فردنند : أكتفي أنـا بهـذا. وحين نلتقي سـأقبـل كـل مـا
تقـومين بعـرضــه من حجـج، وإلى أن يــأتي
الغـد، اقبلي مني كل تـرحاب يليق بشخصـك
الكـريم، كمـا يـوجب النبـل وبمـا لا يخـدش
الشرف. لن تدخلي، يا سيدتي الجميلة، بـاب
قصـري، بـل سيكـون استقبـالـك هنـا خـارج
القصر، بحيث ترين أنك ساكنة في قلبي، وإن
كنت قد حرمت الإقامة في داري. وإني لأطمع
في صفحك وعفوك فـأنت صاحبـة عقل راجـح
ونفس خيـرة. الـوداع إذن، وغـداً سـوف نقـوم
بزيارتك مرة أخرى.

الأميرة : أوتيت أحسن الصحة وأبهج الأفكار يا صاحب الجلالة!

فردنند : وأتمنى لك بدوري، أينما حللت، كل ما تتمنينه لي.

(يخرج)

براون : وأنا أسكنك في قلبي يا سيدتي.

روزلين : إذن فأرني مسكني، فإنه يسعدني أن أراه.

براون : ليتك أنصت لأنينه.

روزلين : أهو عليل؟

براون : في الشغاف وفي النياط.

روزلين : واأسفاه، دعه يدمى إذن.

براون : أفي هذا إبلاله؟

روزلين : أجل، في طب الغرام..

براون : أتجرحينه بمقلتك.

روزلين : كلا. لا بد من المبضع.

براون : حفظ الله حياتك.

روزلين : وحفظ حياتك من طول البقاء!.

براون : سأذهب، إذن، فعمري لن يتسع للشكر.

(يبتعد)

دومين : كلمة واحدة يا سيدي هذه السيدة من تكون؟

بواييه : اسمها كترين، وهي وارثة دوق ألِنْسُون.

دومين : هي سيدة نبيلة. الوداع يا سيدي.

(يخرج)

لونغافيل : أرجوك أن تستمع إلى كلمة مني من هي تلك؟ ذات الثوب الأبيض؟

بواييه : هي امرأة، إذا ما تأملتها جيداً في الضوء.

لونغافيل : ربما كانت نزقة إذا أبصرتها في الضوء. إنما أنا أطلب اسمها.

بواييه : اسمها لشخصها، فإن طلبت اسمها طلبت شخصها. وهذا يجللك بالعار.

لونغافيل : ابنة من تكون، يا سيدي؟ أخبرني لو سمحت.

بواييه : ابنة والدتها. هذا ما يقولون.

لونغافيل : عيب على لحيتك هذا القول.

بواييه : لا تغضب يا سيدي الكريم، هي وارثة فالكونبريدج.

لونغافيل : الآن، قد زال حنقي، إنها آية في الجمال.

(يخرج لونغافيل)

بواييه : ليس هذا ببعيد، قد يكون.

براون : وما اسم هذه السيدة.

بواييه : إنها تدعى روزلين. لحسن الحظ؟

براون : هل هي متزوجة أم لا؟

بوابيه : إنها متزوجة من نفسها يا سيدي، أو شيء من هذا القبيل.

براون : أهلاً بك يا سيدي. وأستودعك الله.

بوابيه : دعني في سلام مرحباً بفراقك.

(يخرج براون)

مريا : هذا الأخير هو براون، وهو السيد المرح ذو الرأس المليء، وحديثه كله هزار.

بوابيه : وهزاره كله كلام.

الأميرة : حسناً فعلت حين تحدثت معه على طريقته.

بوابيه : كلما أمعن في هجومه أمعنت في صده.

كترين : تالله لقد كنتما كشاتي سباق.

بوابيه : بل كسفينتين تتحاربان. يا كبشي الصغير. ما نحن بالحملان إلا إذا أطعمنا من شفتيك.

كترين : أنتم الحملان وأنا المرعى. أهذا يضع حدّاً للهزار؟

بوابيه : أجل إذا أطعمتني.

(يتقدم لتقبيلها)

كترين : مهلاً، مهلاً، أيها الحيوان الظريف. ليست شفتاي كلأ مشاعاً، ولكنهما مرعى خاص.

بوابيه : خاص بمن؟

كترين : بي وبمن تبعث به الأقدار.

الأميرة : يقنع بهذا الظرفاء المهذبون، أما الظرفاء المشاكسون فيستمرون في النزال. لم لا تحتفظ بهذه المبارزات الخطابية لنافار ورجاله العلماء، فإنه يساء استعمالها هنا.

بواييه : إذا كانت فراستي لا تخطىء، وهي قلما تخطىء فهم القلوب العاشقة حين تجيش بالبلاغة الصامتة فتفصح عنها العيون الناطقة، إذا كانت فراستي لا تخطىء الآن فنافار. . . سقيم.

الأميرة : وما سقمه؟

بواييه : بما نسميه نحن العشاق: الحب.

الأميرة : وما هو دليلك؟

بواييه : ألم تلاحظيه؟ إن كل مقدرته على التعبير قد تركزت في ناظريه، فهي تفصح عن ولهه فقلبه كالياقوتة التي نقش عليها رسمك. وهو يزهو بهذا الطابع ويظهر زهوه في عينيه فتعثّر لما حاول مسرعاً أن يسرع إلى عينه. . . إن حواسه الخمس قد تركزت كلها في نظره. حتى لا تحس إلا أروع آيات الجمال، بل يخيل إليّ أن حواسه قد حبست في مقلتيه كأنها الدرر في قمقم من بلور تعرض على أمير ليشتريها وقد عرضت عليك وأنت أمير مترف عابر في

دربك، تناديك أن ابتاعني. ملامح وجهه ملأى
بالعجائب، حتى لقد رأت كل الأعين من فرط
ما تحملقان مسحورتين. أنا أعطيك آكويتين
وكل ما يمتلكه هذا السيد لو أنك قبلته إكراماً
لي، قبلة الحبيب، ولسانه لا يطيق أن يحرم
القدرة على النظرة كما هو قادر على الكلام.

الأميرة : هيا بنا إلى خيمتنا، فبوابيه يميل إلى اللهو
والمرح.

بوابيه : لكنني، لما عبرت بالكلام عما تفصح عنه
مقلتاه، لم أكن إلا لسان عينيه الناطق، فمنحته
لساناً آخر، أعلم أنه لا يكذب.

مريا : أنت من تجار الحب، وكلامك كلام المدرك
الخبير.

كترين : بل هو جد كيوبيد، وهو يأخذ عنه أنباء الغرام.

روزلين : إذن ففينوس كوالدتها كانت، لأن والدها لا
يعرف الغرام.

بوابيه : هل تسمعن شيئاً يا بناتي الخبيثات؟

مريا : كلا لا نسمع.

بوابيه : إذن هل ترين شيئاً؟

مريا : نعم، نرى سبيلنا إلى الخارج.

بوابيه : أنا أقف أمامكن عاجزاً.

(يخرج الجميع)

الفصل الثالث

المشهد الأول

(يدخل ارمادو وموث)

أرمادو : غنِّ لي يا غلام، واملأ مسامعي بشجو الغرام.

موث : (يغني).

دو ري مي فا صول لا سي دو.

عاد الهوى يا شادي للواله الصادي.

أرمادو : ما أجمل هذا اللحن. هيا يا فتى، يا طرير الشباب. خذ هذا المفتاح وأطلق سراح العاشق الفلاح، وآتني به على عجل، فلا بد أن أستخدمه في نقل رسالة إلى محبوبتي.

موث : أتود يا سيدي أن تحظى بمحبوبتك برقصة فرنسية؟

أرمادو : وكيف ذلك؟ أتعني أن نرقص بالفرنسية.

موث : كلا يا سيدي، كلا يا كامل النعوت والصفات. بل تغني أغنية بطرف لسانك، ثم توقعها بقدميك، ثم تذكيها برفع جفنيك إلى أعلى، وعندئذٍ تتنهد بأشجى الآهات وتشقشق بأعذب الألحان. فيخرج النغم من حلقك حيناً كأنما

كنت تبتلع الغرام وأنت تتغنى به. وحيناً يخرج النغم من خيشومك، كأنما كنت تستنشق الغرام وأنت تشمّه. أما قبعتك فأنت تميلها على رأسك حتى تصل إلى عينيك، وهكذا تبدو كالخيمة فوق الحانوت ثم تعقد ساعديك فوق صدرة بطنك الهزيل كأنك أرنب يشوى على السفود، أو تضع يديك في جيبك تشبهاً بالعاشق في الرسوم القديمة. ثم إنك لا تثبت طويلاً على لحن واحد بل تباشر كل شيء ثم تعدل عنه. هذه هي الصفات الرفيعة. هذه هي المظاهر التي توقع في شراكك البنات الظريفات اللواتي لا يحتجن إلى شيء من كل هذا ليقعن في شراكك. هذه هي السجايا التي ترفع من شأن من يتصف بها. هل سمعتم أيها السادة؟

أرمادو : وكيف اكتسبت كل هذه التجارب؟

موث : بخبرتي اشتريتها.

أرمادو : يا ويلاه! يا ويلاه!.

موث : لقد نسينا «جواد الملعب».

أرمادو : أتشبه محبوبتي بجواد الملعب؟

موث : كلا يا سيدي. فجواد الملعب مهر صغير

(جانباً) أما محبوبتك فلعلها فرس عجوز. ولكن هل نسيت محبوبتك؟

أرمادو : لقد كدت أن أنساها.

موث : يا لك من تلميذ خامل، احفظها عن ظهر قلب.

أرمادو : بل أحفظها في القلب، وعن ظهر قلب أيها الغلام.

موث : وبغير القلب يا سيدي، سوف أثبت لك كل هذه الأوضاع الثلاثة.

أرمادو : وماذا تثبت؟

موث : أثبت لك أني رجل إن حييت، أثبت لك حالاً أن العشق يكون بالقلب وفي القلب وخارج القلب. فبالقلب تحبها لأن القلب لا يقدر على الدنو منها. وفي القلب تحبها لأن حبها متشبث في قلبك. وبغير القلب تحبها لأنك لا تستطيع أن تستمتع بها وأنت بغير قلب.

أرمادو : أجل، أنا هؤلاء العشاق الثلاثة في واحد.

موث : بل أنت ثلاثة أضعاف هؤلاء الثلاثة، وبالرغم من ذلك فأنت من هؤلاء، لا شيء على الإطلاق.

أرمادو : إليّ بالفتى العاشق، فلا بد أن أحمله رسالة.

موث : سوف تكون رسالة ملؤها الانسجام، فحاملها

حصان يكون سفيراً لحمار.

أرمادو : ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

موث : حقّاً يا سيدي، يجب أن ترسل الحمار على ظهر الحصان، لأنه بطيء الخطوات ولكني سأنصرف.

أرمادو : الدرب قصير. هيا عجل!

موث : سيكون سيره سريعاً كالرصاص، يا سيدي.

أرمادو : وماذا تعني أيها العبقري الظريف؟ أليس الرصاص معدناً ثقيلاً بطيئاً سقيماً كئيب اللون؟

موث : حاشا، أعني أنه ليس كذلك يا سيدي.

أرمادو : أنا أقول إن السير إذا كان كالرصاص كان بطيئاً.

موث : إن نطقت بهذا يا سيدي فقد تعجلت. أتقول إن الرصاص الذي يخرج من البندقية بطيء؟

أرمادو : إنك تخفي الحقيقة بستار جميل من دخان الفصاحة والبلاغة! إنه يراني مدفعاً ويعد نفسه قذيفة ـ هيا إذن، فأنا أقذف بك إلى الفتى.

موث : اطلق المدفع اطلق.

(يخرج).

أرمادو : يا له من فتى حاد الذكاء، سريع البديهة، كله خفة ورشاقة. ألا فأذني لي أيتها السماء الجميلة أن أصعّد في وجهك آهاتي . وأنت يا

فؤادي الكئيب الشقي، تجمل بالشجاعة. ها هو ذا موفدي قد عاد.

(يدخل موث ومعه كوستار).

موث : عجيبة العجائب يا سيدي! لقد جئتك بكوستار مرضوض الساق.

أرمادو : أية أحجية هذه وأي سر؟ تكلم، ما أمر رسالتك؟

كوستار : ليس لدي سر ولا أحجية، ولا رسالة يا سيدي. ليس في الجعبة بلسم. كل ما فيها هو ورقة موز مألوفة ككل موزة. ليس فيها رسالة. كلا ليس فيها بلسم ليس في الجعبة إلا ورقة موز.

أرمادو : تجبرني قضيتك على الضحك، وغباوتك تغضبني، إن رئتيّ تعلوان وتهبطان فلا يسعني إلا الابتسام، وما أسخف الابتسام. عفواً يا إلٓهي! إن الجاهل هذا يحسب البلسم رسالة والرسالة بلسماً.

موث : وهل يحسبه العارفون شيئاً آخر؟ أليست الرسالة بلسماً وسلاماً.

أرمادو : كلا يا غلام. إنها مقطوعة أو حديث يشرح الغامض فيما سبق قوله. ويوضحه: خذ مثلاً قولنا:

القرد والنحلة والثعلب.
ثلاثة كانوا، فلا تعجبوا.
أن الخلاف بينهم مستحكم.
هـذه هي الصـورة، والآن دعني أعـرفـك بمـا تتضمنه؟

موث : بـل دعني أنا أعـرفك بمـا تتضمنـه. أعـد علي الصورة.

أرمادو : القرد والنحلة والثعلب.
ثلاثة كانوا، فلا تعجبوا.
أن الخلاف بينهم مستحكم.
حتى أتت إوزة تسترحم.
عنـدئـذٍ عـاشـوا على وفـاق كـأنهم زوجـان من العشاق.
والآن دعني أعيـد عليـك الصـورة، ثم كـرر الخاتمة التي أضفتها أنا.
القرد والنحلة والثعلب.
ثلاثة كانوا، فلا تعجبوا.
أن الخلاف بينهم مستحكم.
حتى أتت إوزة تسترحم.
عنـدئذٍ عـاشوا على وفـاق. كـأنهم زوجـان من العشاق.

موث : هذه خاتمة طيبة لأنها تنتهي بإوزة. أتريد المزيد من هذا الشعر.

كوستار : أرى أن الغــلام يستغـفله. إن الأوزة لا تـصلح موضوعاً للشعر.
إذا كـانت الإوزة سمينة فقـد أخذت بحقـك يـا سيدي. إن استغفال المغفلين لا يقل مهارة عن اللعب بـالبيضـة والحجـر. نعم، إن الخـاتمـة لذيذة، لأن الإوزة سمينة. سمينة يا سيدي.

أرمادو : تعال هنا، تعال هنا. كيف بدأ هذا النقاش.

موث : بدأ حين أنبأتـك أن التفاحـة قد رضت سـاقها، فسألتني أن أدلك على خاتمة هذا الكلام.

كوستار : وطلبت أنا أوراق الموز. وهكذا بدأت النقاش، ثم أضاف إليه هذا الغلام الخاتمة اللذيذة فأتاك بالإوزة التي اشتريتها، وهكذا انفضت السوق.

أرمادو : ولكن خبروني كيف انشقت التفاحة في عـظم ساقها.

موث : سأشرح لك الموضوع شرحاً معقولاً.

كوستار : أنت تشعر به يا موث، دعني أتولى أنا الخاتمة.
أنا تفاحة لها نضارة.
تحبني النساء للعصارة.
سعيت ذات يوم خلف غادتي.
أطلب منها متعة كعادتي.

وعندما وصلت قرب بابها.
سقطت لاهثاً على أعتابها.
وهكذا تشققت تفاحتي.

أرمادو : لن نعود إلى الكلام في هذا الموضوع.

موث : حتى ترجع إلى قصبة الساق مادتها.

أرمادو : بحق مريم العذراء يا كوستار لأطلقنّ سبيلك.

كوستار : هو يعني أنه سيزوجني عاهراً، إني أشتم في هذا سوء الخاتمة. وأنتظر أن تخرج منه إوزة كتلك التي خرجت في الأغنية.

أرمادو : أقسم لك بروحي الطيبة أني سأخلي سبيلك، وأحررك من عبوديتك. فقد كنت سجين حبيس الجدران، مكبلاً مغلولاً، مقيّداً أسيراً.

كوستار : هذا صحيح، هذا صحيح. والآن ستخلي سبيلي وتطلق سراحي.

أرمادو : نعم سأمنحك الحرية وأعتقك من ربقة الشقاء ولن أفرض عليك مقابل هذا سوى شيء واحد: أن تحمل هذه الرسالة إلى الفتاة الريفية جاغينيتا وليكن هذا أجر أجزيك بها. لأن أقوى حارس يسهر على شرفي هو أني أكافىء خدمي، هيا، اتبعني يا موث.

(يخرج)

موث : إنني أتبع سيدي كما النتيجة تتبع المقدمة. الوداع يا سنيور كوستار.

كوستار : الوداع يا ذا الخصر النحيل! الوداع يا ذا اللحم الخفيف! الوداع أيها اليهودي الظريف!. (يخرج موث) فلأبحث الآن عن هذا الجعل. الجعل؟ وما الجعل؟ إنها كلمة ضخمة يراد بها الأجر، بل الأجر الرخيص. فهو إذن يريد أن يعطيني أجراً رخيصاً، أقول ما ثمن هذا الشريط؟ فلس واحد. ولكنه يجيب «سأعطيك عنه جعلاً». جعل! جعل - يا لها من كلمة ضخمة! تسمعها فتحسب أنك أخذت جنيهاً ذهباً. كلا، كلا، لن أبيع ولن أبتاع بهذه العملة.

(يدخل براون)

براون : يا خادمي الطيب! مرحباً بك.

كوستار : أخبرني يا سيدي: كم شريطاً وردياً أستطيع أن أبتاعه بجعل؟

براون : وما الجعل.

كوستار : دراهم ثلاثة يا سيدي.

براون : تستطيع إذن أن تبتاع حريراً بثلاثة دراهم.

كوستار : أشكرك يا سيدي. وأودعك في حفظ الله.

براون : مهلاً، أيها العبد! سأكلفك بعمل. فإذا شئت أيها النذل الطيب أن تكسب ودادي فاقض لي حاجة واحدة أرجو أن تقوم بها.

كوستار : ومتى تريد إنجازها؟

براون : عصر اليوم.

كوستار : حسناً يا سيدي، سوف أنجزها لك. الوداع.

براون : ولكنك لا تدري ما هي هذه الحاجة.

كوستار : سأعرفها بعد أن أنجزها.

براون : بل لا بد أن تعرفها أولاً أيها اللعين.

كوستار : سأرجع إلى سيدي في صباح الغد.

براون : ولكن يجب أن تقضي حاجتي في عصر هذا اليوم استمع إلي أيها اللعين. الأمر بسيط: ستحضر الأميرة للصيد في هذه الحديقة، وبصحبتها سيدة ظريفة اسمها من أجمل ما تنطق به الألسنة، فهم يسمونها روزلين. اسأل عن هذه السيدة وضع في يدها البيضاء هذه الرسالة المختومة. خذ هذا مكافأة لك. هيا اذهب.

كوستار : ما أجمل هذه المكافأة، نعم، المكافأة خير من الأجر، أكثر منه بأحد عشر بنساً ودرهماً زيادة ما أطيب هذه المكافأة. سوف أحمل رسالتك يا

سيدي. سأنفذ كل شيء بدقة متناهية. تبّاً للأجر ولتحيا المكافأة.

براون : واهاً لي! أنا عاشق بحق! أنا الذي كنت على الحب حرباً، أنا المنتقم من كل عاشق ولهان. أنا الذي كنت أترصد للغلام كيوبيد ترصد الناقد، بل ترصد الشرطي الذي يمضي الليل ساهراً ليذب اللصوص. أنا الذي لم يكن يطاولني في كبريائي أحد! لقد أصبحت ذليلاً أمام هذا الغلام المعصوب العينين الضعيف البصر الكثير الزفرات والآهات، هذا الصغير الكبير والقزم المارد كيوبيد. رب القوافي التي تدبج في نجوى الغرام، ومولى العاشقين القانطين المبتهلين، الملك المتوج في دولة الآهات والأنات، سيد المتسكعين الكسالى والعابسين الساخطين، أمير النساء وملك الرجال، وهو القائد الأعلى لشرطة الآداب! واحر قلباه! لقد أصبحت ضابطاً في جيش كيوبيد، أزدان بألوانه كأنني الطوق الملون في يد مهرج، يا للعجب أمثلي يقع في شراك الحب. أمثلي يخطب ود النساء، أمثلي يبحث عن زوجة، وما الزوجة إلا التي تفتأ تفسد

وتـطلب الإصلاح كمـا الساعـة الألمانيـة، ومع ذلـك فهي لا تنصلح أبداً: إن تـركتها تضبـطك اعوجّ سيرها. ولا بد من ضبـطها لكي تستقيم! بل أفظع من هذا كله أن أنكث العهد، ولا أتيم من هؤلاء الفتيات الثلاث إلا بأسوأهن جميعـاً. الغانية اللعوب ذات الطلعـة الشاحبـة والناعمـة الجبين كـالمخمل، والتي في وجههـا استقرت كـرتان من القـار الأسود مكـان العينين. أجل، بنت تعرف سبيلها إلى الفراش ولو كان حارسها كيوبيد يـريد أن يـطلقه على أرغـوس، وهأنـذا تـذهب نفسي حسرات أجلهـا! وهـأنـذا أبحث عنهـا! أطلبها لنفسي، وامصيبتـاه! إنه داء لأني لـم أكتـرث لصـولتــه هـذه الصغيــرة الـرهيبـة الجبارة. سوف أقع واقرض الشعر، وأملأ الدنيا بالآهات والزفرات. سوف أصلي لها، وأعرض قلبي عليها، وأرسل في حبها الأنات والزفرات. وإذا كـانت أحقر ريفيـة تجـد من يبثهـا نجـوى الغـرام، فمن حق السيـدة العـظيمـة أن تجــد العاشق الولهان.

الفصل الرابع

المشهد الأول

(تدخل الأميرة ومريا وكترين وروزلين وبوابيه
ونفر من النبلاء والأتباع وحارس الغابة)

الأميرة : هل هذا هو الملك الذي رأيناه يهمز حصانه همزاً عنيفاً ليصعد به التل الصعب المرتقى؟

الحارس : لست أدري، ولكني أرجح أنه لم يكن الملك.

الأميرة : أيّاً كان ذلك الفارس، فقد بدا أنه يجيد الفروسية، اسمعوا يا سادتي سنحقق اليوم ما أتينا لأجله، ثم نعود يوم السبت إلى فرنسا. والآن يا صديقي الحارس، دلنا على الشجيرة التي نختبىء خلفها لنصطاد.

الحارس : ها هنا. في طرف تلك الغابة، فهو أجمل مكان لأجمل رماية.

الأميرة : أنا أحمد الله على جمالي. فأنا رامية جميلة ولهذا تنطلق منك أجمل الألفاظ.

الحارس : عفواً يا سيدتي. أنا لم أقصد هذا.

الأميرة : ما هذا؟ أتطريني ثم تعدل عن إطرائي. ألا ما أقصر أجل فخري! ألست حلوة واحسرتاه!

الحارس : بلى يا سيدتي أنت حلوة.

الأميرة : لا. لا. لا تصفني بعد الآن. فحيث لا يكون الجمال فإن المدح والإطراء لا يصلحان الوجه، وأنت يا مرآتي الصادقة! خذ هذا مقابل صدقك، وإذا جوزي قبيح الكلام طيب الجزاء كان هذا أكثر مما يستحق.

الحارس : بل كل ما تمتلكينه جميل.

الأميرة : انظروا! انظروا! هكذا خلُص إلى أن جمالي سيصونه جميل الصفات! هكذا اقتحمت الزندقة دولة الجمال، ولا غرو فنحن نحيا في زمن زنديق! آتوني بالقوس. فالرحمة تنطلق لتقتل، فإن أصابت الهدف قالوا: أساءت وهكذا أحتفظ بقدري في هذه الرماية: فإن لم أصب طريدتي، فذلك لأن الرحمة تأبى عليَّ أن أصيبها. وإن أصبتها، فذلك لأني أحب أن أظهر براعتي، لا حباً مني بالقتل، ولكن طمعاً مني في المدح والثناء. وهذا، بلا مواربة ما يحدث في بعض الأحيان. فمريد المجد يخضب نفسه بالجرائم الفظيعة ذلك لما تستهوينا الشهرة والإعجاب، وهما شيئان عارضان، فترانا نخنق في سبيلهما نداء القلب.

أليس هذا ما أفعله أنا الآن حين أسفح دم هـذا الغزال البريء لا لشيء إلا لأحظى بإعجابكم، فقلبي لا يريد به شراً.

بوابيه : ولأجـل الإعـجـاب ولا لسـواه، ألا تـسعـى الـزوجات الناشـزات إلى طلب السيـطرة حين يردن أن يسيطرن على أزواجهن

الأميرة : نعم، من أجـل الإطـراء وحـده. وإن علينـا أن نمتدح كل سيدة تخضع لها رجلاً.

(يدخل كوستار)

بوابيه : هذا مواطن في الجماعة قادم إلينا.

كوستار : أسعـدتم مساءً جميعـاً. من منكن رأس هـذه الجماعة، يا سيداتي؟

الأميرة : ستعرفها يا فتى لأن الأخريات بلا رؤوس.

كوستار : من أكبركن؟ من أعلاكن؟

الأميرة : أكبرنا أسمننا، وأعلانا أطولنا.

كوستار : إذن فهي أسمنهن وأطولهن! هذه هي الحقيقة، والحقيقـة هي الحقيقـة. لـو كـان خصـرك يـا سيدتي نحيلاً كعقلي لوجدت زنار هؤلاء البنات في حجم خصـرك. ألست السيدة الأولى هنـا؟ أنت أسمن الموجودات.

الأميرة : ماذا تريد، يا سيدي؟ ماذا تريد؟

كوستار : معي رسالة من السيد براون موجهة إلى سيدة تدعى روزلين.

الأميرة : ناولني الرسالة. ناولني الرسالة. إن صاحبها من أصدقائي الأوفياء. ابتعد قليلاً أيها الموفد الكريم. وأنت يا بوابيه تحسن التقطيع، فافتح لي هذه الرسالة. هيا افتحها.

بوابيه : أنا خادمك المطيع. إن هذه الرسالة قد أضاعت السبيل فهي لا تخص أحداً هنا. بل هي مسطّرة لجاغينيتا.

الأميرة : فلنقرأها. أقسمت أن نقرأها. اكسر الشمع وانصتوا جميعاً.

بوابيه : (يقرأ): «أقسم بالسماء أن جمالك جمال لا جدال فيه. الحق أنك فاتنة، والحقيقة أنك حلوة. بل أنت أجمل من الجمال وأفتن من الفتنة وأحلى من الحلاوة. بل أنت أحق من الحقيقة. فارحمي عبدك البطل، إن ملكاً كريماً شهيراً يسمى «كوفيتا» قد وقع نظره على مستجدية شريرة لا ريب في حقارتها تدعى زينولوفون، فحق فيه القول المأثور: جئت فشاهدت وغلبت، وشرحها بلغة الدهماء، (ويا

ويلنا من جهالة الدهماء ومن وضاعة الدهماء)، أقول تفسيرها أنه جاء، فشاهد، فغلب، جاء واحد وشاهد اثنين، وغلب ثلاثة. فمنذا الذي جاء؟ إنه الملك. ولماذا جاء؟ جاء ليشاهد. ولماذا شاهد؟ شاهد ليغلب ثم إلى من جاء؟ جاء إلى مستجدية. وماذا شاهد؟ شاهد المستجدية. وعلى من استولى؟ استولى على المستجدية. والنتيجة إذن هي الانتصار انتصار الملك. وهكذا اغتنى الأسير. ومن الأسير هنا؟ هو المستجدية. بهذا وصلنا إلى قمة المأساة، وهي الزواج. مأساة من؟ أمأساة الملك؟ لا بل مأساة الطرفين. اثنان في واحد وواحد في اثنين. وأنا هذا الملك لأني عظيم مثله، وأنت هذه المستجدية بدليل حقارتك، فهل آمرك أن تحبيني؟ لو وددت لفعلت. هل أغتصب حبك؟ إن شئت لاستطعت. هل استجدي حبك؟ نعم هذا ما أنا فاعله. وماذا ستربحين بهذا التبادل؟ ستستبدلين برث الملابس، غالي الثياب. وبالأشياء الدنيئة الألقاب السامية وتعطيني نفسك فأعطيك شخصي. وأنا بانتظار جوابك، ألوث شفتي بقدميك. وأدنس مقلتي بالنظر إلى

صـــورتـك، وأنجس فؤادي بكــل قـطعــة من جسدك.

ودمت لك المحب الساهر على خدمتك.

دون أدريانو دي أرمادو.

«حـاشية»: «وهكـذا تسمعين زئيـر الأسـد وهـو يهجم عليـك أيها الكبش ليفتـرسك... ولكن ملك الوحوش يتخاذل أمامك في خضوع، فـإذا هو يلاعبـك بدل أن يـطاردك. فإن قـاومت فلن يكون منك أيتها المسكينة غير طعام يلتهمـه في سورة غضبه، وعشاء يحمله معه إلى عرينه».

الأميرة : أية ريشة هذه التي كتبت هذه الرسالة؟ لا بد أن يكون رجلاً أبلـه يعلن أحاسيسه كما تدل الراية على مهب الريح. هل سمعتم أجمل من هـذا الكلام.

بواييه : لقد غرر بي كثيراً، ولكني أذكر هذا الأسلوب.

الأميرة : لو أنك نسيته لكانت ذاكرتك ضعيفة حقاً. فقـد ذكرته منذ قليل.

بواييه : إن أرمــادو هـذا رجــل إسبـاني يقيم هنــا في القصـر، وهو رجـل غـارق في الأوهـام يـطلب بـلاط الملوك ليرضي غـروره، إنـه أضحـوكـة الأمير وزملائه في الدرس.

الأميرة : لي معك كلمة يا فتى، من أعطاك هذه الرسالة؟

كوستار : قلت لك إن سيدي قد أعطاني إياها.

الأميرة : وإلى من أمرك بتسليمها؟

كوستار : هذه رسالة من سيدي إلى سيدتي.

الأميرة : من أي سيد وإلى أية سيدة؟

كوستار : من سيدي الكريم النبيل براون إلى سيدة فرنسية يسميها روزلين.

الأميرة : لقد غلطت في تسليم الرسالة. هيا بنا نذهب أيها السادة. تعالي يا حبيبتي اخفي هذا الأمر، فسيأتي دورك عما قريب.

بواييه : من الرامي؟ من الرامي؟

(تخرج الأميرة وحاشيتها)

روزلين : أتود أن أعلمك كيف تعرفه؟

بواييه : أجل، يا نبع الجمال.

روزلين : الرامي من القوس بيده. لم تصب الهدف.

بواييه : إن سيدتي قد خرجت لتصطاد القرون. فإذا تزوجت فسوف تنبت هذا العام من القرون قرون صغيرة، قبل أن يحل الموعد. لقد أحسنت التصويب!

روزلين : إذن فالرامي أنا.

بواييه : ومن غزالك؟

روزلين : إذا أخذنا بالحساب طول القرون، فخير لك أن تبتعد عن مرماي. لقد أصبت حقّاً.

مريا : إذا أكملت في نـزالها يا بواييـه، فستصيبك في مقتل.

بواييه : ولكني قد أصبتها بأسفل. هل أصبتها الآن؟

روزلين : هل أبدأ الهجوم بمثل قديم كان متداولاً كثيراً لما كان ببين ملك فرنسا غلاماً صغيراً، وهو ذو صلة بإصابة الهدف.

بواييه : أجيبك بمثل لا يقل عنه قدماً كان كثير التداول حين كانت غوينفير ملكة بريطانيا بنتاً صغيرة. وهو ذو صلة بإصابة الهدف.

روزلين : لن تلمسه يا صديقي، لن تلمسه، لن تلمسه، لن تلمسه.

(تخرج)

بواييه : إذا لم أستطعه، لم لم أستطعه، لم أستطعه لم أستطعه، فإن سواي يستطيع.

كوستار : الحق أقول: ما أظرف هذا الكلام، فكل منهما قد أدرك القصد!.

مريا : هدف عظيم ورماية ماهرة، فكلاهما أصاب.

بواييه : أجل، إنه هدف، فلنستهدف الهدف. إن سيدتي تقول إنه هدف. فليت في الهدف مسماراً يثبته حتى تصوب السهم إليه إذا شئنا.

مريا : أراك قد ابتعدت عن الهدف نحو اليسار.
أجل، خرجت يدك على المدار.

كوستار : هذا صحيح، إذا المرء لم يدنُ من الهدف فلن يصيب المسمار الذي في وسطه.

بواييه : وإذا كانت يدي قد خرجت عن المدار فلا شك أن يدك قد ولجت فيه.

كوستار : إذن ستنتصر السيدة عليك إذا هي أصابت المسمار ففلقته؟

مريا : كفى. كفى. إن كلامك يخرج عن حد الأدب.
قد أخذت شفتاك تتلوثان.

كوستار : إنها أبرع منك في رماية المسامير. لاعبها إذن بالكرة.

بواييه : أخشى كثرة التصادم، طاب مساؤك أيتها البومة الطيبة.

(يخرج بواييه ومريا وكترين)

كوستار : أقسم أن هذا خادم ريفي! يا له من مهرج ساذج! يا إلهي! يا إلهي! لقد أخرسناه، أنا والسيدتان. حقاً هذه النكات ما أمتعها! نعم ما أمتع هذه الفكاهة الرخيصة حين تُقال في لطافة، بل في قذارة، بل في دعارة، وتصيب الهدف. ثم هناك أرمادو، وهو رجل أمتع من

المتعة! تنشرح له العين حين تبصره يختال أمام سيدة تحمل مروحتها! بل حين تشاهده يلثم يده بدلاً من أن يلثم يدها. أجل! أقسم إنه منظر يشرح الصدر. ثم هناك خادم أرمادو. إنه كتلة من غباء! أيتها السماء! بل هو حشرة تافهة يتفطر لها قلبي! سولا، سولا.

(يسمع من الداخل صوت من صراخ الصيد والقنص)

(يخرج كوستار).

المشهد الثاني

(يدخل هولوفيرنز والقس ناثنيال ودول)

ناثنيال : القنص، بلا ريب، رياضة العبادة والصلاح، يباركها الضمير الذي يخاف الله.

هولوفيرنز : كانت الغزالة الصغيرة، كما تعرف، غاية في القوة والنشاط كما لو أنها تفاحة يانعة، تتدلى كالجوهرة من أذن الجوزاء، والجوزاء هي الجواء، والجواء هي الفضاء. والفضاء هو السماء، ثم تسقط سريعاً سقوط التفاحة البرية على أديم الأرض، أعني التربة أو الثرى أو وجه الأرض.

ناثنيال : بالحقيقة، يا أستاذ هولوفيرنز، إن الصفات التي تسوقها هي نعوت جميلة لأنها متعددة وأقل ما يقال فيها إنها خليقة بالعلماء. ولكني أؤكد لك أن الطريدة لم تكن غزالة صغيرة بل ظبياً فحلاً كامل النماء.

هولوفيرنز : تالله يا سيدنا ناثنيال لا أصدق ما تقول.

دول : لم تكن هي تالله، بل كانت ظبياً أحمر عمره عامان.

هولوفيرنز : هذا كلام يدل على الجهل الأكيد، ومع ذلك فهو نوع من السفسطة قاله قائله «من باب» أجل من باب الشرح والتفسير، أي كما قال المتقدمون من باب المعارضة، أو بالأصح من باب الفيقهة لإظهار علمه الكثير. فهو يتشدق بقول «تالله» في وصف الغزالة، وهو الأمي الفارغ، من كل علم أو تربية أو تمرين أو حلية مما يتحلى به الإنسان أو صقل أو تهذيب أو تشذيب.

دول : أنا قلت لم تكن «تالله» غزالة، بل كانت ظبياً أحمر عمره عامان.

هولوفيرنز : هذه بساطة مضاعفة ضعفين، فهي بساطة أس اثنين. أيها الجهل الضارب ما أقبح منظرك!.

ناثنيال : اعذره يا سيدي، فهو لم يطعم بثمار العلم التي تجنى من صفحات الكتاب، وهو لم يزدرد الورق ولم يجرع المداد إذا صح هذا التعبير فعقله إذن خاو. وما هو سوى حيوان أعجم. لا يشعر بشيء إلا بأعضائه القليلة الحس والمشاعر، وهذه الأشجار العقيمة التي لا تطرح ثماراً نراها أمامنا، لنحمد الله ونشكره على ما نفحنا إياه ـ نحن أهل الذوق والشعور ـ

من نعمـة الخصب والإثمار بمـا يسمو بنـا على
مثله من أهـل الجهل الأغـرار. فكما أن عـالمـاً
مثلي لا يحق له أن يستسلم للجهل أو للحمـاقة
أو للغــرور، فكـذلـك لا يحق لغرّ مثله أن
يقبل على العلم، ولا تنفع المدرسة في تأديبه.
ولكنني أقـول إن كل مـا هو كـائن كائن للخيـر.
وقـد قال آبـاؤنا الحكمـاء: أكثر النـاس تعصف
بهم الرياح ولكنهم يحتملون النسيم.

دول : أنتما من أهل المعـرفة والاطـلاع، فهل منكمـا
من يـرد على سؤالي: مخلوق كان عمـره شهراً
عنـدمـا ولـد قـابيـل وهـو لم يبلغ بعــد خمسـة
أسابيع، فما هو هذا المخلوق؟

هولوفيرنز : هو ديكتينا يا صديقي دول. أجل هو «ديكتينا» يا
صديقي دول.

دول : ومن تكون «ديكتينا» هذه؟

ناثنيال : هـذا اسم من أسماء «فـوب» أو «لونـا» أي إلهة
القمر في الأساطير.

هولوفيرنز : كان عمر القمر شهراً حين كان عمر آدم شهـراً،
ثم بلغ عمر آدم مائة من الأعوام والقمـر لم يبلغ
خمسة أسابيع، والقياس ينطبق على قابيـل كما
ينطبق على آدم.

دول : صحيح هذا. فالأساس ينطبق على قابيل..

هولوفيرنز : رحم الله جهلك! أنا أقول القياس ولا أقول الأساس ينطبق إذا بدلنا الأسماء.

دول : وأنا أقول الدنس ينطبق على قابيل، لأن القمر لا يتجاوز عمره شهراً البتة. وأقول كذلك إن ما قتلته الأميرة ليس غزالة بل ظبي أحمر عمره عامان.

هولوفيرنز : أتحب يا سيد ناثينال أن تسمع رثاء مرتجلاً في موت الغزالة؟ أو في موت الظبي فأنا أسمّي الغزالة، التي قتلتها الأميرة، ظبياً لأرضي غرور الجهلاء.

ناثنيال : تفضل يا أستاذ هولوفيرنز، تفضل. تفضل وامحق سفاهة السفهاء.

هولوفيرنز : سألجأ أحياناً إلى السجع والجناس. فهذا أهون وأسهل: «ظفرت الأميرة بظبي ظريف وطعنته فظعن عن الحياة. وقيل فحل فقلت رويداً، وهل يستفحل الطعن إلا إذا استفحل الظبي؟ وعلا نباح الكلاب فأيقظ الطريدة في الغاب، فخرجت تقفز فأرداها القوس والنشاب. ولو لم تسقط الطريدة لكان صراخ الصيادين بغير جدوى. وحين يقع الظبي جريحاً ويسقط

طريحاً تراهم يثخنونه بالكلام ويملؤونه بـألف قرح. فيا ظبيـي الجريح كـان جرحـك فريـداً فأعطوك المزيد. كـان جرحـك واحداً فجعلوه ألفاً، وهأنذا أجعل جراحك ألف جرح وجرح، ومـا أضفت إلا جرحـاً واحـداً بهـذه القصيـدة المجروحة يا غزالتي الجريحة».

ناثنيال : ما أندر هذه القريحة.

دول : ليست هذه قريحة جريحة بل قريحة جارحة كمخالب الطيور الجارحة.

هولوفيرنز : هذه هبة نفحتني إيـاها السمـاء، وهي غايـة في البساطة. نعم إن السماء قد وهبتني روحـاً بلهاء تهـوى الشـطط في الخيـال، وتـزخـر بـالبيـان وتملؤها الرسوم والصور والأشكال. روح تفـور بالأفكار والنوازع والتقلبات. فهـذه تستولـد في بـطن الذاكـرة، وتغذى في رحـم الأم الحنـون، ثم تولد عنـدما تينـع ويحين الأوان. ولكن هذه الهبة نعمة فيمن يشتعل بها ذكاؤهم وإني لأشكر الله وأحمده على هذه الهبة.

ناثنيال : وأنا أشكر الله يا سيدي لأنه نفحنا بـك، ويشكر الله معي من هم في رعيتي فأنت تؤدب أولادهم فتحسن تأديبهم، أما بناتهم فهن يجنين بفضلك

أطيب الأثمار أنت المواطن الصالح في هذا المجتمع.

هولوفيرنز : قسماً بهرقل! إن كان أولادهم على ذكاء فلن يحتاجوا إلى تعليم، وإن كانت بناتهم على استعداد فسأعلمهن كما يجب. ولكن الحصيف من يحظى الكثير بالكلام القليل، ها هي ذي روح مؤنثة تلقي علينا السلام.

(تدخل جاغينيتا وكوستار).

جاغينيتا : أسعد الله صباحك يا سيدنا القس.

هولوفيرنز : القس الحاذق إنسان خارق، وإذا كان هنا من يجب أن يخرق، فمن هو الذي يخرقه القس الخارق؟

كوستار : هو يا أستاذي المعلم أكثرنا ثملاً. هو يا أستاذ هولوفيرنز أشبه منا بقربة النبيذ.

هولوفيرنز : القس يخرق القربة! ما ألمع خيالك، ولكنه يلمع في الوصول. وإن فيه من النار ما يقدح الزناد. ومن الدود ما يكفي لأن يلقى للخنازير، نعم هذا قول جميل. هذا قول بارع.

جاغينيتا : يا سيدنا القسيس، تفضل واقرأ في هذه الرسالة فقد أتاني بها كوستار من السيد أرمادو. أرجوك أن تقرأها.

هولوفيرنز : قال الشاعر: «ما أحلى طلب الماء العذب حين ترعى الماشية في الظل الظليل». ما أجمل كلامك يا منتوان! إني لأنعتك بوصف الرحالة للبندقية مدينة الجمال فأكرر قول الشاعر:

«أي فينيسيا أي فينيسيا! من لم يشاهدك لم يدبج فيك ثناء ومدحاً، لكن من رآك كلفه جمالك الشيء الكثير». أي مانتوان! يا شاعر الطبيعة والجمال. من لم يفهمك لم يذب فيك حبّاً.

دو ري مي فا صول لا سي دو! عفوك يا سيدي ماذا في الرسالة؟ بل دعني أنشد كما أنشد هوراس من قبل: «يا روحي. هل هذا شعر»؟

ناثنيال : نَعَم يا سيدي، ونِعْمَ الشعر هو.

هولوفيرنز : إذن غن لي فقرة أو مقطعاً أو قصيدة، هيا يا سيدي.

ناثنيال : «إذا ما الحب علمني، أن أحنث في اليمين، فكيف أصدقك على حب أمين»؟

واهاً لي فليس كل إيمان مزعزع إلا ما نما في معبد الجمال وترعرع.

إني وإن كنت خائناً لعهدي، فسوف ترين أني مقيم على وعدي.

وهذه أفكاري أراها كالبلوطة الهائلة، وترينها أنت، كالصفصافة المائلة.
فعاشقك لأجلك درسه يهجر وصحابه، ومن عينيك يجعل قلمه، وكتابه ففي مقلتيك من دون العيون.
اجتمع كل ما في الدنيا من سحر الفنون.
وإذا كانت المعرفة تميز الرجال.
فحسبي أن أعرفك يا ذات الجمال.
ومن برع بوصف هذا البهاء.
فهو من أعلم العلماء.
والذي لا تهزه روعة هذا الجمال.
يكون من أجهل الجهال.
فخليق إذن أنا ببعض الثناء.
كوني أقدر هذا البهاء.
بمقلتيك قد وضع الإله بروقه العجيبة، وفي صوتك رعوده الرهيبة.
لا دلالة الغضب، ولكن أمارة الطرب، فهي بروق ساكنة كالنسمات.
ورعود كأعذب النغمات فيا ملاكاً هبط من السماء!
اغفري خطيئة العاشق النكراء!.
وهي أني أحيي جمالك الإلّهي البديع.
بهذا الشعر الدنيوي الوضيع.

هولوفيرنز : لقد أقويت بالوزن فدعني أنظر هذه القصيدة:
هنا الوزن صحيح أما الطلاقة والطلاوة والليونة، والإيقاع الذهبي الذي يلزم أن يتميز به الشعر فليس لها وجود.
إن «أوفيد ناسو» هو سيد الشعراء العاشقين، وقد سموه ناسو لأن الناس نسوا أنه الفريد بين الشعراء الذي كان يشم ورود الخيال وأزهاره فيعرف عاطرها ويسمع خفقات الإبداع فيعرف نادرها. أما التقليد فلا شيء، وهو إذ أن الكلب يقلد سيده، والقرد يقلد حارسه، والحصان التعب يقلد ممتطيه. وأنت أيتها الآنسة البتول أكانت هذه الرسالة موجهة إليك؟

جاغنيتيا : نعم يا سيدي، من سيد في بلاط المملكة الأجنبية يدعى براون.

هولوفيرنز : سألقي نظرة على العنوان: «إلى اليد الناصعة البياض نصوع الثلوج، يد فاتنة الفاتنات، السيدة روزلين». دعيني أتفحص ثانية محتوى الرسالة ففيه اسم الطرف الكاتب إلى الطرف المكتوب إليه. وهو يقول: «وأنا خادم سيدتي المطيع في كل رغبة تبديها، براون».
اسمع يا سيد ناثنيال. إن براون هذا هو أحد

أصفياء الملك، وهو هنا قد كتب رسالة لوصيفة في حاشية الملكة الأجنبية، وقد ضلت هذه الرسالة سبيلها إما صدفة أو بفعل فاعل. هيا يا فتاتي الظريفة، سلمي هذه الرسالة إلى يد جلالة الملك، لربما يهمه أمرها كثيراً. هيا اخطري واذهبي بلا تردد. وأنا أعفيك من آداب الانصراف مع السلامة.

جاغينيتا : تعال معي يا كوستار. جعل الله حياتك، يا سيدي طويلة سعيدة.

كوستار. : اذهبي يا ابنتي.

(يخرج كوستار وجاغينيتا)

ناثنيال : لقد تصرفت في هذا الموضوع تصرف من يخاف الله. أجل لقد تصرفت بدافع من الإيمان التام. وفي هذا يقول أحد الآباء.

هولوفيرنز : دعنا من الآباء يا سيدي، فأنا لا أحب التبرير الزائف. فلنعد إلى الشعر. هل أعجبتك الأبيات يا سيد ناثنيال؟

ناثنيال : أسلوبها آية في الإبداع.

هولوفيرنز : سأتناول اليوم طعام العشاء في منزل والد تلميذ من تلاميذي، فإن أحببت أن تبارك المائدة فسوف أتوسط، بما لي من حظوة، لدى والد

هـذا التلميـذ لأقـدمـك إليـه فيجعلك مـوضـع الترحيب. وسوف أثبت هنـاك أن الأشعار التي قرأتها هي أشعـار قد نـظمها جـاهل، فليس في هـذه الأشعـار، من روح الشعـر، الـذكـاء أو الابتداع، شيء يسعدني أن ترافقني.

ناثنيال : أشكرك، فالاجتماع، كما جاء في المثل المأثور، هو سر السعادة.

هولوفيرنز : وهذا القول من هذا القائل بلا ريب هـو الكلمة الفصل في الموضوع (مخاطباً دول) وأنا أدعوك أيضاً يا سيدي، ولن ترفض دعوتي، فخير الكلام ما قل ودل. هيا بنا وإن النبلاء يمرحون في ألعابهم، فلنمض نحن إلى متعتنا.

(يخرجون)

المشهد الثالث

(يدخل براون حاملاً ورقة)

براون : إن الملك يصطاد الغزلان، ومثله أنا ألاحق طريدتي. لقد نصبوا للغزال شركاً، ووقعت أنا في جبائل الغرام، وحبائل عينيها السوداوين بلون القار، وهذا القار يوسخني، يلوثني؟ كلا. هذه كلمة بذيئة. مرحباً إذن بالأتراح. فهذا ما يقولون إن المغفل يقوله، وما أقول أنا هو هذا، فأنا المغفل إذن. ما أصدق حكمك يا عقلي! أقسم بربي أن هذا الحب شبيه بالبطل آجاكس في جنونه. إنه مثله يقتل الخرفان، وهو يقتلني، فأنا إذن خروف. مرة أخرى ما أصدق حكمك، يا كبدي! لن أخضع للحب. فإن خضعت له اعدموني قسماً بالله لن يذلني الغرام.

أواه! ما أجمل مقلتيها! أقسمت بهذا النور، لولا عيناها ما عشقتها. بل لولا عيناها الاثنتان لما أحببتها. وأنا لا عمل لي في هذه الدنيا غير الكذب، الكذب الصريح.

نعم، أقسم بالسماء إني لعاشق، وأن العشق علمني نظم القريض والقوافي وعلم نفسي الأحزان. وهذا بعض ما نظمت من شعر وهذا بعض ما زفرت من أحزان.

نعم، لديها الآن إحدى أغنياتي. حملها المهرج وأرسلها، والمغفل أرسلها وسيدة القلب استلمتها. فالمهرج حبيبي، وأحب منه إلي المغفل، وسيدة فؤادي أحب إلي من الجميع. أقسمت بالدنيا وما عليها، لا أكترث بالثلاث الأخريات أصابهن ما أصابني. ها هو ذا رجل قادم نحوي يحمل ورقة. أسأل الله أن ييسر لي زفراته.

(ينتحي جانباً)

(يدخل الملك حاملاً ورقة)

فردنند : واهاً لي!

براون : أقسم بالسماء، لقد أصابه السهم! تابع عملك يا كيوبيد! لقد أصبته بسهمك تحت ضلوعه اليسرى حيث هو القلب. هذه حقّاً أسرار!

فردنند : (يقرأ) هي أعذب من قبلة الشمس الذهبية قبلتك تطبعها على ندى الصباح الذي يسيل على الوردة لعابه.

قبلتـك كضياء مقلتيـك الـذي يجلو طـل الليـل حين ينهمر على وجنتي.
والبـدر الفضي حين يسـطع في جـوف البحـر الشفـاف لا يـداني نـور وجهـك حين يختـرق عبراتي وينير حياتي.
ينفذ سناك من كل عبرة تسكبها مقلتاي، وما من دمعـة سكبتها إلا احتـوتـك، وجـرت بـك على وجنتي، كأنها مركبة مطهمة الجيـاد. وأنت فيها الأميـرة الـظافـرة تمشين في مـوكب أتـراحي وأحزاني.
ولو شاهدت دموعي الفياضة لرأيت غرة جمالك تبدو وسط أشجاني.
ولكن ناشدتـك ألا تفتني بجمالـك فتتخذي من عبراتي الجامدة مرآة لك فأضطر إلى الاستمرار في البكـاء.
فيا مليكة الملكات! صفاتـك الحسنى لا يحيط بها عقل ولا يحصيها بيان».
تـرى كيف لي أن أطلعها على أجـزاني؟ سوف أسقط هذه الورقة.
فيا أيتها الأوراق الحبيبـة، خبئي الجنون. تـرى من القادم؟ (ينتحي جانباً) من أرى؟ لونغـافيل،

يا للعجب، إنه يقرأ. انصِتي يا أذني لما يقول.

(يدخل لونغافيل حاملاً جملة أوراق)

براون : إنني أرى في شخصك مغفلاً جديداً!

لونغافيل : واهاً لي. لقد حنثت بقسمي.

براون : ها هو ذا قادم علينا في هيئة المزيفين أوراقه على رأسه تعلن للناس تزييفه.

فردنند : أرجو أن يكون قد دخل زمرة المحبين. إننا نتآخى في العار، ويا لها من أخوة!

براون : كتآخي السكير مع السكير.

لونغافيل : هل أنا الأول ممن حنثوا بقسمهم؟

براون : بوسعني أن أطمئنك، فأنا أعرف أكثر من حانثين. أنت الحاكم الثالث في دولة العشاق. أنت الركن الثالث في قبعة الهيام أنت العمود الثالث في مشنقة الغرام التي يشنق عليها المغفلون البلهاء.

لونغافيل : أخشى ألا يكون، في هذه الأشعار السميجة من القوة ما يهز مشاعرها. وأحاسيسها. فيا مريا الحبيبة! يا سيدة الفؤاد! سأمزق هذا الشعر وأكتب نثراً بدلاً عنه.

براون : بل إن القوافي كالوشي المدبج على جورب كيوبيد، فلا تتلف حانوت كيوبيد.

لونغافيل : إذن لن أبعث غير هذا الشعر.

(يقرأ قصيدته)

«لعينيك بيان من السماء فصاحته فلا يقوى البشر على نقاشه ألم تقنع مقلتاك قلبي بأن يحنث في اليمين؟ ومن حنث بالعهد لأجلك فلا إثم عليه ولا يحق عقابه.

أقسمت أن أبتعد عن النساء، أما وأنت إلهة، فسأثبت أني ما أقسمت على الابتعاد عنك.
أنا أقسمت أن أنأى عن الحب الدنيوي ولكن حبك سماوي.

فإن ظفرت برضاك أبللت، من جميع ذنوبي.
فما العهود سوى أنفاس من هواء، وما الأنفاس غير بخار.

وحين تشرقين يا شمس الجمال على كياني الأرضي يتبخر هذا البخار وتتبخر معه عهودي.
فإن حنثت بعهدي من أجلك فلا ملامة علي
فإذا حنثت بقسمي فالأحمق من لا يرى أن من الحكمة أن يخسر عهداً ليكسب فردوساً.

براون : هذا غرام الكبد الذي يؤله اللحم ويجعل من هذه الحمقاء إلهة، إنها عبادة للأوثان هدانا

الله، نعم، هـداانـا الله، فقـد ضللنـا سـواء السبيل.

لونغافيل : من رسولي بهذه الرسالة؟ مهلاً يا صديقي.

(ينتحي جانباً)

براون : هذه لعبة الغميضة لعبة الغميضة. لهْو قديم من لهْو الأطفال. هـأنذا أقعـد هنا كـأنني نصف إلّه تـربع وسط السمـاء، ومن عليـائي، عن كثب، أرقب أسرار المساكين البلهـاء تتكشف أمامي. ومـا خفي منها كـان أعـظم. أيتهـا السمـاوات! هذه أمنيتي تتحقق.

(يدخل دومين حاملاً ورقة).

إن دومين قـد تغيّر: أربعـة من البلهـاء الحمقى في وقت واحد!.

دومين : أي كترين، أيتها الإلّهة المعبودة!

براون : أي دومين. أيها المغفل النجس.

دومين : أقسم بـالسماء أن عجـائب الخلود قد اجتمعت في مقلتيها الفاتنتين.

براون : وأنـا أقسم بالأرض أنهـا ليست خالـدة بـل هي جسد فان، وإنك لكذوب.

دومين : شعرها العنبري، قد نال من شأن العنبر.

براون : ولو شاهدنا غراباً بلون العنبر لكُنّا أعجبنا.

دومين : قوامها منتصب كشجرة الأرز.

براون : بل أقول إنها محدودبة، وبارزة الكتف.

دومين : بهية كالنهار.

براون : نعم، كبعض الأيام، ولكنها أيام لا تشرق الشمس فيها.

دومين : ليتني حصلت على مناي.

لونغافيل : وليتني حققت أمنيتي كذلك.

فردنند : وأنا أيضاً، حقق مناي يا الله!.

براون : آمين! استجب لهم ليتحقق فيهم مناي. أليس هذا دعاء صالحاً.؟

دومين : أود أن أنساها، ولكنها كالحمى تسري في دمي فلا تغيب عن البال.

براون : إذا كانت كالحمى تسري في دمك فالفصد يخرجها منه في الأطباق. ألا ما ألذ هذا الغلط!

دومين : سأقرأ القصيدة التي نظمتها مرة أخرى.

براون : وسأشاهد أنا الحب كيف يؤثر في الألباب.

دومين : (يقرأ أغنيته) في يوم، ويا له من يوم مشؤوم، رأى الغرام في أيار، وهو شهر الغرام إلى أزل الآزلين.

وردة ليس لجمالها مثيل.
تتلاعب في النسيم اللعوب.
ويتخلل الهـواء أوراقها المخمليـة، فـلا تبصـره العيون.
فلما شاهد الغرام ما كان، أمرضـه الحب فتمنى أن يكون كالنسيم، وهو أنفاس السمـاء. وصاح الغرام قائلاً:
أرى النسيم يقبـل وجنتيك، فليت لي ظَفـرك يا نسيم!
ولكن، واحـرّ فؤادي، ! لقد أعـطيت العهـد ألا أقطفك يا وردتي من بين الأشواك.
واأسفاه إنه لعهد ليس خليق بالشبـاب الذي مـا ولد إلا ليجني ملذات الحياة.
فلو أني حنثت بعهـدي تحيـة لجمـالـك، فـلا تعدي هذا إثماً.
فلو أبصـرك «جـوف» سيـد الأربـاب لأقسم أن حبيبتـه «جـونـو» حبشيـة، وأنكـر في غـرامـك ألوهيته ونزل على الأرض بلباس الآدميين».
سـأرسل هـذه القصيدة، ومعهـا أرسـل مـا هـو أوضح منها وأزود أدلـة على آلام الحرمـان التي يكابدها حبي الصادق. ألا ليت الملك وبـراون

ولـونغافيل مثلي من العشاق. فـالمثـل السيىء يمحو السوء ويزيل عار الخيانـة المخطوط على جبيني ولا مجال للوم حيث يتساوى الجميع في الصبابة الحمقاء.

لونغافيل : (يتقدم).

أي دومين، إن ودادك خـال من صفـات الخيـر لأنـك تتمنى أن تشـرك معـك سـواك في شقـاء الحب. أراك شـاحب الـوجـه، أمـا أنـا فلست أرتـاب، إن وجهي يحمـر حيـاء وخجـلاً لـو أن منصتاً سمعني أهذي على هذا الشكل.

فردننـد : (يتقدم)

لا تقل يا سيدي إن وجهك يحمر خجلاً وحياءً، كـأن حالـك شبيهة بحـاله. أنت تلومـه وإثمك ضعف إثمه. إن لونغافيل ينكر أنه يحب مـريا، إن لـونغافيـل ينكر أنـه نـظم فيهـا الشعـر أو من أجلهـا ضم ذراعيه إلى صـدره العاشق ليسكت فؤاده عن الخفقان. لقد استخفيت عن الأبصـار خلف هذه الشجرة ورأيت منكما معاً ما يحمر له الـوجـه خجـلاً وحيـاءً. سمعت أشعـاركمـا المشينة، وراقبت حالكمـا، فرأيتكمـا تصعدان الـزفرات، وشـاهدت فيكمـا كل دلائـل العشق

والغرام. فإن قال أحدكما: «واهاً لي!» صاح الآخر: اللهم لطفك! وإن قال أحد منكما: حبيبتي شعرها نضار» صاح الآخر: «وعينا حبيبتي تشعان كالبلور».

(مخاطباً لونغافيل)

ألم تقل يا لونغافيل إنك تخون العهد راضياً لتنعم بالفردوس؟

(مخاطباً دومين)

وأنت يا دومين، ألم تقل إن جوبتر ذاته يخون العهد لو شاهد محبوبتك؟ لسوف يُسَرُّ براون شامتاً حين يعلم أنكما حنثتما بالقسم بعد كل هذا الحماس. لسوف يهزأ بنا أشد الهزء. لسوف يضحك منا ما شاء له الضحك. لسوف يرقص طرباً من فرحة الظفر ويضحك ملء فمه. ولو أنني أعطيت كل ما رأيته في هذا العالم من غنى لما رضيت لنفسي أن يعرف براون عني شيئاً من هذا.

براون : هأنذا أتقدم لأجازي الكاذبين. (يتقدم).

ألتمس صفحك يا مولاي الكريم. وأنت يا ذا القلب الحنون بأي حق تلوم هؤلاء العشاق المتيمين على ودادهم؟ إن عينيك لتبكيان فتجري منهما الدموع على الخدود كأنها مركبات تلوح الحبيبة

فيهـا. وكـأنهـا الأميـرة في مـــوكبهـا، وأنت لن تحنث في يمين، فهـذا الحنث شيء كريـه. تباً لهؤلاء العــاشقـين، إذ لا يـحب الأغــانـي إلا المغنـون. ولكن ألا تخجلون ثلاثتكم من هـذا الضلال المبين؟ أنت، يا لونغافيـل ترى القـذى في عين دومين، ومولاي الملك يرى القذى في عينك، أما أنا فأرى الخشبة في أعينكم جميعاً. لقد شاهدت منظراً عجيبـاً من مشاهـد الحماقـة يضج بالتأوه والأنين ويفيض ألماً وحزناً وأنـا في مجلسي قــاعـد أغــالب الصبـر إذ رأى الملك العـظيم يتحـول إلى حُشيـرة، وهـرقـل الجبـار يعبث كمـا الأطفال، وسليمـان الحكيم يـرقص طرباً، أو نسطور الوقور يلهو كـالغلام، وتيمـون المتجهم يقهقـه للتفـاهـات، أرني يـا صـديقي دومين، أين استقرت أحزانك؟ وأنت يا لونغافيل النبيـل: أرني أين استقـرت آلامـك؟ أرني يـا مولاي، أرني مكان الداء. ها هنا، حول الصدر كله. هاتوا شراباً ساخناً فيه شفاء.

فردنند : مـا أمر دعـابتك يـا بـراون. أهكـذا بتجسسـك تفضحنا؟

براون : أنـا لـم أفضح أحـداً، بل أنـا الذي افتُضـح لقد

افتضحت. أنا الرجل الشريف الذي يعد نكث العهود خطيئة، لقد افتضحت برفقة أمثالكم من الرجال المتقلبين تقلب القمر في أبراجه. لن تروني أنظم القوافي، أو أمزق نفسي حسرات من أجل هذه أو تلك، أو أضيع من وقتي دقيقة في زينة نفسي. لن أتغزل في أي عضو من أعضاء الجسد، وجه أو قدم أو عين أو خطوة أو قدّ أو جبين أو صدر أو خصر أو ساق.

فردنند : مهلاً! فيم التسرع؟ هل يركض هذا الركض رجل شريف، أم لص.

براون : أنا أعدو هرباً من الحب، فدعني في سبيلي أيها العاشق الولهان.

(يدخل كوستار وجاغينيتا)

جاغينيتا : سلام الله على الملك!

فردنند : ما هذا الخطاب الذي تحملينه.

كوستار : دليل الخيانة المحققة.

فردنند : وما تصنع الخيانة هنا؟

كوستار : لا شيء يا مولاي.

فردنند : إذا كانت لا تنفع ولا تضر فاذهب مع الخيانة بسلام.

جاغينيتا : ألتمس من مولاي أن يأمر بتلاوة هذا الخطاب،

فسيدنا القس يشتبه به ويقول إنه ينطوي على الخيانة.

فردنند	:	هيا اقرأ الخطاب يا براون (يقرأ براون الخطاب) ممن أخذت هذه الرسالة؟
جاغينيتا	:	من كوستار
فردنند	:	وممن أخذتها يا كوستار؟
كوستار	:	من السيد أرمادو. من السيد أرمادو.
فردنند	:	عجباً! ماذا أصابك لماذا تمزق الرسالة؟
براون	:	إنها شيء تافه يا مولاي.. أجل، شيء تافه. فلا داعٍ للانزعاج منها يا مولاي.
لونغافيل	:	بل أرى أن الرسالة قد أثارته. فلننصت إذن لما يقول.
دومين	:	(يجمع الأوراق الممزقة) إنها بخط براون وهذا اسمه.
براون	:	(مخاطباً كوستار) أيها الأحمق، يا ابن العاهر، لقد ولدتك أمك لتفضحني بين الناس. أنا مذنب يا مولاي.. نعم أنا مذنب. أعترف بأني مذنب، أعترف بأني مذنب.
فردنند	:	بماذا تعترف؟
براون	:	بأن ثلاثتكم حمقى، وإنه كان ينقصكم أحمق رابع، هو أنا، لتكتمل رباعيتكم.. هذا

لـونغافيـل، وهذا دومين، وأنت، أجـل أنت يـا مــولاي، ثم أنـا، نحن جميعنــا من لصـوص الغرام، فحق علينا القتل. اصرف هـذا الجمع يا مولاي أخبرك المزيد.

دومين : الآن تعادلنا.

براون : نعم، نعم، فنحن أربعـة، نحن زوجـان. هـلا انصرف هذان العاشقان؟

فردنند : هيا اذهبوا يا سادة.

كوستار : الشرفاء، والخونة يظلون

(ينصرف كوستار وجاغينيتا)

براون : أيها السادة، الأحبة، أيها العشاق الأحباء. هيـا بنـا نتعـانق فنحن ذوو صلة قـويـة كصلة اللحم بالدم. من طبيعـة البحر المـد والجزر، وسمـة السمـاء أن تكشـف النقـاب عن وجههــا، ودم الشباب لا يخضع لقانون الشيوخ. ولسنا نملك أن نتحدى الغاية التي من أجلها خلقنـا فليتحلل إذن كل مِنا من قسمه.

فردنند : عجباً مـا أسمـع! هـل كـان في هـذه الأشعـار الممزقة ما ينم عن هواك؟

براون : كيف تتسـاءل يا مـولاي؟ أفي النـاس من يـرى روزلين ذلـك الملاك، ولا يحني هـامته أمـامها

كـالعبد الـذليل، ويعشيـه بهاؤهـا فيخر سـاجداً لـلأرض يلثم الـرغـام الخسيس تحت قـدميهـا بنفس راضيـة، كأنـه همجي من أجلاف الهنـد يتعبـد لمطلع الشمس في الشـرق العظيم؟ وأي عين ثـابتة جـارحـة كعين النسـر تجـرؤ على أن تتـطلع إلى جبينها السني الـوضاء، ولا يعشيهـا جلال الضياء؟.

فردننـد : أي حماس هذا الـذي يُلهبك الآن، وأيـة نشوة تلهمك هذا القـول؟ إن محبوبتي، وهي سيـدة محبـوبتـك، هي البـدر البهي في عـلاه، ومـا محبوبتك إلا كالنجم الخافت في فلكه، يوشك ألا يرى له نور ولا ضياء.

براون : إذا كـان الأمـر كـذلـك فعينـاي إذن تكـذبـان، ولست إذن براون العارف بأسرار الجمال. فلولا محبوبتي لاستحال النهار ليلاً داكناً، وفي خدها الزاهي تجمعت أجمل الألوان، كما تتجمع في الـروض ألـوان الـربيـع، أو كـأنمـا تضـافـرت الفضـائل المتعـددة واتحـدت في كـائن واحـد نبيل. بل إن محبـوبتي هي الكمال الـذي ليس فيه نقص، وكل ما يتمناه المرء موجود فيه. ليت لي بلاغة الشعـر العذب الحنـون! كلا. كـلا.

سحقاً للبلاغة الزائفة، فهي بغنى عنها.
إنما بضاعة التجار تحتاج إلى المديح، أما محبوبتي، ففوق كل مديح هي وكل مديح يسيء إليها لأنه يقصر عن بلوغ كمالها. فلو أن ناسكاً هرماً أفنى مائة شتاء يتطلع في عينيها لارتد في الخمسين. فرؤية الجمال تجدد العمر وترد الشيخ طفلاً وليداً، بل ويحيل لحده مهداً.
أجل، هي الشمس محبوبتي، منها يستمد كل شيء نوره..

فردنند : قسماً بالله! لمحبوبتك سوداء كما الأبنوس..

براون : وهل الأبنوس مثلها؟ ألا أيها الخشب المقدس! إن زوجة من الأبنوس هي السعادة بعينها هل بينكم من يستطيع أن يقسم؟ إليّ بكتاب أقسم عليه أن كل غادة بريئة من الجمال إن هي لم تستوح من محبوبتي كيف تسبل الطرف لتصرع الرجال، وما من وجه يتحلى بالجمال إلا إذا في مثل سوادها كان..

فردنند : ما هذه التناقض! فالسواد للجحيم، شارة وهو لون الليل الدامس، ولون السجون المظلمة، وإن الجمال الحق - لا الجمال الذي أنت به

معجب ـ هو الذي يليق بهذا التشبيه السماوي .

براون : إن الشياطين تضللنا حين تظهر كأرواح من ضياء . وإذا كان جبين محبوبتي مجللاً بالسواد فهذه شارة الحداد تلبسها حين ترى الشقراوات يخدعن العاشقين الحمقى بالأصباغ وبالشعور المستعارة. ولهذا فيد الله قد سوّتها لتضفي على السواد جمالاً، تبدل الأذواق وفق هواها، فنحن في عصر يرى الزيف في كل ما وهبته الطبيعة، وهكذا تصبغ الشقراء شعرها بالصيغة السوداء لتسلم من الهجاء. فتفتن الأفئدة لأنها تشبه محبوبتي .

دومين : وكذلك يشبه بها منظفو المداخن لكثرة ما عليهم من أوساخ .

لونغافيل : وغدا الفحامون من بعدها يحسبون بيضاً .

فردنند : والأحباش تفاخروا بوجوههم البيضاء .

دومين : ولم نعد الآن بحاجة إلى الشموع لنطرد الظلام، لأن الظلمة غدت مضيئة .

براون : قولوا ما تشاؤون، ولكن محبوباتكم لا يجرؤن على الخروج وقت المطر لئلا تزيل الأمطار أصباغهن .

فردنند : ليت صاحبتك تقف في المطر، أود أن

أصارحك، يا سيدي، أني أريد أن ألقى وجهاً أكثر بياضاً من وجهها لم يغسل اليوم.

براون : سأثبت لكم أن محبوبتي جميلة، ولو ظللت أجادلكم إلى يوم الدينونة.

فردنند : إذن لن يفزعك عفريت بقدر ما تفزعك هي.

دومين : أنا ما عرفت رجلاً يعتز بالدمامة كل هذا الاعتزاز.

لونغافيل : هذه مرآة محبوبتك. انظر إلى قدمي وإلى وجهها تجدهما سواء.

(يرفع حذاءه)

براون : بل إن عينيك لا تصلحان، موطئاً لقدميها الدقيقتين.

دومين : خسئت يا رجل! لو أنها سارت على عيني لرفعت بصري من تحت إلى فوق وشاهدت أشياء كثيرة.

فردنند : ولكن ماذا يهم هذا؟ ألسنا، جميعنا من العشاق؟

براون : بلا جدل ولا نقاش، وبهذا نكون، جميعنا خائنين للعهد.

فردنند : إذن دعونا من هذا الكلام الذي لا طائل وراءه. هيا

اثبت لنا، يا صديقي براون، أن غرامنا مشروع وأننا لم ننكث عهداً.

دومين : نعم، نعم. أسمعنا بعض المديح والإطراء في هذا الإثم والخطيئة.

لونغافيل : أرنا الصواب بما لديك من حجج. درّبنا على بعض الألاعيب التي نسفسط بها على الشيطان.

دومين : نعم، قل شيئاً يبرئنا من يمين الزور.

براون : أنتم بحاجة شديدة لذلك. خذوا إذن عني الكلام يا فرسان العشق والغرام: فكروا بما حلفتم عليه أولاً: لقد حلفتم أن تصوموا وأن تطلبوا العلم وأن تمتنعوا عن مشاهدة النساء. وهذه خيانة صريحة لدولة الشباب. أجيبوا، هل بمقدوركم، أن تصوموا؟ إن مِعَدكم طرية لا تحتمل الصوم. والامتناع عن الأكل يولد الأمراض. ثم إنكم يا سادتي، حين حلفتم لتطلبن العلم ترك كل منكم كتابه فحنث كل بقسمه، فهل يمكن لأحدكم الآن أن يقبل على أوراقه ويمعن النظر فيها ويغوص في الأحلام؟ ومتى كنت يا مولاي، وأنت، يا دومين، وحتى أنت يا لونغافيل، متى كنتم ترون للعلم معنى

إلا ما تقرؤونه في وجه امرأة جميلة؟ وهذه فلسفتي التي تعلمتها من عيون النساء. فعيون الحسناوات هي أساس الحياة وكتبها ومجامع العلم فيها، وهي الينابيع التي تفجرت منها نيران بروميثيوس سارق اللهب ومانحه لبني البشر. ألا ترون أن التعلم المستمر يشل الحيوية الدفاقة في مجرى الأوردة والشرايين، كما تجهد الحركة الكثيرة والتنقل المتواصل قوة المسافر؟ أما عن العهد الذي عاهدتموه بأن تمتنعوا عن رؤية النساء، فهذه خيانة لما خلقت العيون من أجله. بل هي خيانة لما تعاهدتم عليه من طلب العلم. وأين هو ذلك المعلم الذي يعلمنا أسرار الجمال خيراً من مقل النساء. وما العلم إلا امتداد لأنفسنا يكون حيث نكون. وإذن فنحن نرى نفوسنا منعكسة في عيون الحسناوات، ألسنا نرى فيها أيضاً ما حصلناه من علم؟ نعم يا سادتي، لقد حلفنا أن نطلب العلم، ومن حلف أن يطلب العلم فقد حلف أن يترك الكتب. فهل وجد أحدكم في تأملاته المملة ما أوحي إليه بمثل هذه الأشعار الدفاقة التي استلهمتموها من وحي العيون

الســاحــرة؟ وهي خيــر مؤدب لمن طلب غنى النفس؟ إن كل فن، ما عدا الحب يركـد ساكناً في العقـل، وحين لا يجـد من يتزاولـه يتكشف عقمه فلا يثمـر شيئاً يعـادل ما نبـذله من ضنـك جهيد في تحصيله. أما الحب الذي تلهمنـا إياه أول ما تلهم مقل الحسان، فإنـه لا يبقى حبيساً في العقل وحده، بل يسري في كياننا المتحـرك سريان الفكـر السريـع في كل قـوة من قوانـا، فتتضاعف به كل قوة وتزكو به وظائف الملكات. فبالحب يقوى في العين بصرها، وللعاشق عين إذا نـظرت إلى النسر هـوى كفيفاً. وبـالحب يقوى في الأذن إنصاتها، فللعـاشق أذن تسمع أخفت الأصـوات التي تعجـز عن سمـاعهـا أذن اللص الـذي يشـك في أي صـوت. أذن تفــوق في حساسيتها قرون القواقع ذات المحار. وللعاشق لسان أعذب مذاقاً من خمرة باخوس. وللعاشق قلب شجاع كأنه هرقـل يعارك التنين ولا ينقـطع عن تسلق الأشجـار في الجزر السعيـدة. أجل! العـاشق مـاكـر كـأبي الهـول، مترنم بـأعـذب الأغنيات كأنه قيثارة أبولو. أوتـارها من شعـره. وإذا مـا تكلم الحب تسبح الآلهـة جميعاً فتغفـو

السمـاء على إيقاع النشيـد. وما عـرفنا شـاعـراً اجترأ على أن يمسك بيراعه لينـظم الشعر حتى امتـزج مداده بـزفرات الهيـام. وعندئـذٍ تسحـر أشعـاره آذان الهمج وتعلم الـطغاة كيف يكـون الخشوع. هذه فلسفتي التي تعلمتهـا من عيون النساء: فعيون الحسان تتلألأ على الدوام كأنها القبس الـذي نفحه بـرومثيـوس لبني الإنسـان. وهي سفـر الحيـاة ومنبـع فنهـا وعلمهـا الـذي يكشف كل أسرارها ويحوي كل مبادئها ويغذي كـل مـا في الكـون. لا فضـل لشيء إلا بهـذه العيـون. وإذن فقـد كنتم من الحمقى والبلهـاء لمـا أقسمتم أن تجتنبوا النسـاء، فـإذا احترمتم قسمكم كنتم أكثـر حماقـة من الحمقى. فبحق الحكمة هذه التي يعشقهـا كل النـاس، أو بحق الحب وهو الكلمة المحببة لجميع الرجال، أو بحق الرجال الـذين يخلقون أولئـك النساء، أو بحق النسـاء اللـواتي يجعلن من الـرجـال رجـالاً، دعـونا نخسـر هذه الأيمـان لذبـح ذواتنـا، وإلا خسرنا ذواتنا وفاء بهـذه الأيمان. إن من الـدين أن نحنث بهذا العهد، فبـالخير يتحقق نـاموس الله، وهل هناك من خير بغير حب؟

فردننـد : أنت إذن قديسنا كيوبيد. هيا إلى الوغى يا جنود الغرام!.

براون : تقدموا براياتكم، واهجموا عليهن أيها السادة! أشيعوا الاضطراب في صفوفهن وليسقطن! ولكني أنصحكم أن تدخلوا هذه المعركة والشمس من ورائكم.

لونغافيل : والآن إلى الجد. دعونا من هذه الحواشي. هل اتفقنا على أن نغازل هؤلاء البنات الفرنسيات؟

فردننـد : وقررنا أن نغلبهن كذلك. فلنحضّر لهن إذن شيئاً من السلوى في خيامهن.

براون : أولاً، لننقلهن، من الحديقة إلى الخيام. ثم نرجع إلى المنزل وقد أخذ كل منا بيد محبوبته الجميلة، وبعد الظهر نسري عنهن بطريف المتع بحسب ما يسمح وقتنا القصير. ذلك أن القصف والرقص والتمثيل والأوقات السعيدة هي الرسل التي تتقدم موكب الحب السعيد وتنثر في طريقه الزهر والورود.

فردننـد : هيا بنا! هيا بنا! لن نضيع هنيهة واحدة لها قيمتها إلا انتفعنا بها.

براون : هيا بنا هيا. من يبذر «السنبلة الخاوية» لا

يحصد قمحاً، وعجلة العدالة تدور بانتظام
ولربما في البنات المفرطات نقمة على الرجال
الحانثين. فإذا كان الأمر كذلك فالجزاء من نوع
العمل.

(يخرجون)

الفصل الخامس

المشهد الأول

(يدخل هولوفيرنز والسيد ناثنيال ودول)

هولوفيرنز : حسبك من غنى شبع وروي..

ناثنيال : أشكر الله لك يا سيدي. فآراؤك على مائدة العشاء كانت قوية بليغة، ظريفة دون عربدة، فكهة دون تكلف، جريئة دون وقاحة، متمكنة دون غرور، غريبة دون كفر. فمنذ أيام كنت أتحدث مع صديق من أصدقاء الملك يدعى دون أدريانو دي أرمادو، أن هكذا اسمه، أو هذا لقبه.

هولوفيرنز : أعرف الرجل بقدر ما أعرفك، وهو رجل سامي الفكر والخيال، بالي الحديث، طلق اللسان، طموح النظرات، ويمشي الخيلاء. أما عن مسلكه العام فهو يفيض بالغرور ويدعو إلى الهزء والسخرية، فالرجل مزهو بنفسه، مبذر في الزينة، مفرط في الأناقة، متطرف في التكلف، إذا جاز هذا التعبير، مبالغ في الشذوذ، يمكن أن أصفه بأنه جوّاب آفاق.

ناثنيال : هذا وصفٌ فريدٌ منتقى.

(يخرج مذكرته)

هولوفيرنز : وهو متفلسف يحبك حججه الغليظة من كلام خيوطه الدقيقة. أنا أمقت صحبة أمثاله من المجذوبين المسرفين في الغربة، والإغراب، المنفرين للأصحاب، المولعين بافتعال الدقة، المفسدين للهجاء فتراهم يقولون «طبعي» حيث يجب أن يقولوا «طبيعي» ويقولون «بدهي» حيث ينبغي أن يقولوا «بديهي»، وتراهم يميلون «مجرى» إلى «مجري»، و «مرسى» إلى «مرسي»، ويختصرون الكلام اختصاراً. ويتعمدون الإغراب فيقال: «هذا جنون»، ويقولون: «هذه لوثة»، ألا تفهم، يا سيدي؟

ناثنيال : بلى، أفهم جيداً، ولله الحمد.

هولوفيرنز : ولم تقول أفهم جيداً؟ قل: أفهم «بون، فور، بون»، فهذا ما يقوله النحاة مع تحريف بسيط، ولكنه يفي بالغرض.

(يدخل أرمادو وموث وكوستار)

ناثنيال : من القادم إلينا؟

هولوفيرنز : أرى رجلاً تسرني لقياه.

أرمادو : يا غنام!

هولوفيرنز : ولم ينادي يا غنام، ولا ينادي يا غلام؟

أرمادو : السلام عليكم يا أهل السلام.

هولوفيرنز : وعليك السلام يا رجل الحروب.

موث : إنهم يتغذون على الكلام، وكأنهم كانوا في وليمة لغوية وسرقوا منها فتات الألفاظ.

كوستار : أجل. لقد عاشوا طويلاً على حثالة الألفاظ. والعجيب في الموضوع أن سيدك لم يعدك لفظاً فيأكلك. فبعض الكلمات التي يستعملها أكثر منك طولاً، وابتلاعك أهون من ابتلاع جرعة من الشراب.

موث : صمتاً، فالجرس بدأ يدق.

ارمادو : (مخاطباً هولوفيرنز): يا سيد! ألست مثقفاً؟

موث : نعم، نعم، فهو يدرس الصبيان في كتاب «مطالعة القرن»، ويضع على رأسه قرناً حين يدرسهم حروف الهجاء مقلوبة.

هولوفيرنز : لا. بل هو يوزع القرون على الصبيان.

موث : ماء. هذا صوت كبش ذي قرنين لا يفقه شيئاً وهذا كل علمه فاسمعوه.

هولوفيرنز : ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ أيها الإنسان التافه الذي لا وجود لك إلا مع سواك وكأنك الحرف الساكن.

موث : وأنت آخر الحروف الخمسة المتحركة إذا أنت ردّدتها أو الحرف الخامس منها! سأرددها إذا رددتها أنت.

هولوفيرنز : سأكررها ألف. واو.. ياء.. اووو. اى ى ى.

موث : تماماً كما الكبش والحرفان الآخران يختتمانها.

أرمادو : قسماً بأمواج البحر المتوسط، وهي ملح أجاج.. إن هذه لدعابة ظريفة، وهي صفعة سريعة من صفعات القريحة. لقد أصبته يا موث بخفة وبراعة. إن هذا ليشرح صدري. هذه فكاهة صادقة.

موث : هدية من طفل مثلي إلى هرم مثله عمره قرن..

هولوفيرنز : وأين التورية في هذا القول؟

موث : في القرون

هولوفيرنز : أنت تجادل كالأطفال.. هيا اذهب والعب الخذروف بمنأى عني..

موث : هات قرنك أصنع منه خذروفاً. وعندها ستجدني أفضح عارك أمام الجميع.. تصوروا! خذروفاً من قرن خروف!

كوستار : لو لم يكن لدي سوى فلس واحد لأعطيتك إياه جزاء لك.. خذ هذا، فهو لك. إنه كل ما أخذته من سيدك مكافأة لي.. خذه يا ذا الذكاء

الصغير. لو أن السماء رضيت علي فجعلت منك ولدي في الحرام لجعلت مني أكثر الآباء مسرة وطرباً. إن فكاهتك مسقفة إلى آخر مدى، كما يقولون.

هولوفيرنز : أسمع لحناً في اللغة. لا تقل مسقفة، ولكن قل مثقفة.

أرمادو : سر أمامي أيها العالم المتمكن. ولنذهب عن هذه الزمرة، عصبة الرعاع. ألست تدرس الشبان في المدرسة، القائمة على رأس الجبل؟

هولوفيرنز : نحن ندعوه الكثيب، أي التل.

أرمادو : سم الجبل ما تحب من الأسماء.

هولوفيرنز : سأسميه، بلا جدال.

أرمادو : يا سيدي إن الملك تعطف فأراد أن يقوم بزيارة الأميرة في خيمتها ليحمل إليها التهاني في أعجاز النهار، أي عند العصر كما يقول سفلة القوم.

هولوفيرنز : بل الخير أن نقول في أعجاز النهار، فهذا التعبير، يا سيدي الكريم، أكثر تلاؤماً ومطابقة ودلالة على العصر. وهو تعبير منتقى بعناية،

وأؤكد لك يا سيدي أنه مناسب وجميل، أجل،
أؤكد لك ذلك.

أرمادو : وبدوري أؤكد لك يا سيدي أن الملك سيد نبيل وأنه من أصدقائي الخـلّص. نعم أؤكد لـك أن الملك من أخلص خلصائي. أما ما يحدث بيننا سـراً فلن أخوض فيـه. وإني أرجوك أن تـذكـر آداب اللياقة فتغطي رأسك العـاري. أمـا مـا يحدث من أمور خطيرة بيننا وأشياء هدفها جليل ومغـزاهـا عميق فلن أخـوض فيـه أيضـاً ولكن ينبغي أن تعرف أن جلالته يسرّ أيمـا سرور حين يـريح رأسـه على صـدري المسكين هـذا. ثم يروح يعبث بأنامله الملكية بشعـري، وبشاربي هـذا. ولكني لن أخـوض في هـذا كـذلـك يـا حبيب قلبي. أقسم بـالـدنيـا ومـا عليهـا أني لا أروي لك شيئاً من نسـج الخيال، فـإن جلالتـه يتعـطف ويختصني بالشـرف فيجعـل في بعض الأمور خادمه أرمادو مـوضع سـره، لأنه جنـدي باسل، شجاع، ورحالة كثير الأسفـار قد جـاب أرجـاء العالم. ولكني لن أخـوض في شيء من هـذا. وخلاصـة القـول أن الملك يـريـدني أن أعرض أمام الأميـرة، هذا الكتكـوت الجميل،

مشهداً، أي منظراً، أي ألعاباً بهلوانية أو ألعاباً بالنار يبتهج من يشاهدها وإنني أبتهل إليك أن تحفظ هذا السر يا حبيب قلبي. ولما كنت أعرف أن القس وشخصك الكريم من العارفين بهذه المسليات التي ذكرتها لك، وبكل ما يبعث في المسرة النفس فقد ذكرته لكي أطلب منكما مساعدتي في هذا الشأن.

هولوفيرنز : إذن فاعرض أمامها مشهد «الأبطال التسعة». اسمع يا سيد ناثنيال. إذا كان هناك من مشهد يقدم في أعجاز النهار، ابتغاء السلوى، نتعاون نحن في إخراجه أمام الأميرة بأمر الملك ومرضاة لهذا السيد النبيل العظيم العارف بالعلوم، فلست أجد مشهداً يصلح لهذا الغرض خيراً من مشهد «الأبطال التسعة».

ناثنيال : ومن أين لك الرجال الأكفاء للقيام بدور هؤلاء الأبطال؟

هولوفيرنز : تقوم أنت بدور يسوع. وأنا وهذا السيد النشيط نقوم بدور يهوذا المكابي. وهذا العاشق الجلف يؤدي دور بومبي الكبير نظراً لضخامة أعضائه، والغلام موث بدور هرقل.

أرمادو : عفوك يا سيدي، فقد أخطأت. إن موث أصغر

من إبهام ذلك البطل، وهراوة هرقل أضخم منه حجماً.

هولوفيرنز : هلا أنصت إلي، سيقوم موث بتمثيل دور هرقل مصغراً، وهو سوف يخنق أفعى ليدل على ذلك عندما يظهر على المسرح، وسأقوم أنا بإعداد كلمة أشرح فيها هذا الموضوع.

موث : هذه حيلة موفقة! فإذا زمجر الجمهور غضباً صحت: «أحسنت يا هرقل! أنت تفتك الآن بالأفعى!» تلك هي الحيلة التي تجعل الخطأ يبدو جميلاً. وقليلون من يقوم بتمثيل هذا ببراعة.

أرمادو : وماذا نفعل بباقي الأبطال.

هولوفيرنز : سأقوم أنا بدور ثلاثة منهم.

موث : فأنت إذن مثلث البطولة.

أرمادو : أتسمعون رأياً لي.

هولوفيرنز : كلنا آذان صاغية.

أرمادو : إذا لم ينجح هذا المنظر عرضنا عليها ألعاباً بهلوانية. أرجوكم أن توافقوا.

هولوفيرنز : لا تبتئس يا صديقي دول. أنت لم تنبس بكلمة واحدة طوال هذا الوقت.

دول : ولم أفهم كلمة واحدة مما تتفوهون به يا سيدي .

هولوفيرنز : هيا بنا! سوف نجد لك دوراً تؤديه .

دول : سأشترك في الرقص. أو في أي شيء من هذا القبيل. أو أقرع الطبل للأبطال حين يرقصون .

هولوفيرنز : يا صديقي الشريف، يا أغبى الأغبياء، هلموا إذن لإعداد ألعابنا .

(يخرجون)

المشهد الثاني

(تدخل الأميرة ومريا وكترين وروزلين)

الأميرة : تطلّعن يا حبيباتي! إذا جاءتنا الهدايا بهذه الوفرة فسوف نصبح من الأغنياء قبل أن نرحل عن هذه البلاد. انظرن إلى ما بعث إليَّ الملك العاشق: حلية فيها سيدة أسيرة بين أسوار من الماس!

روزلين : ألم يبعث مع هديته شيئاً آخر يا مولاتي؟

الأميرة : لا شيء سوى هذه الهدية. لقد بثني من لواعج غرامه في شعره بقدر ما اتسعت لذلك الورقة التي بعثها. وهي مسطَّرة على الوجهين وفي الهوامش وفي كل مكان. وتفيض بالحب كأن مدبّجها أحب أن يوقعها بخاتم كيوبيد.

روزلين : هكذا يبلغ كيوبيد أشده، فقد ظل صبياً خمسة آلاف سنة.

كترين : أجل وكان بائساً تعيساً لا يصلح لشيء إلا للمشنقة.

روزلين : لن يزول غضبك على كيوبيد يا كترين فقد قتل شقيقك.

كترين : نعم، لقد جعلها حزينة كئيبة مهمومة، وهكذا

ذوت وماتت. ولو أنها مثلك كانت طائشة تهوى
نفسها اللهو والطرب لعاشت حتى تغدو جدة.
ولعل حالك ستكون هكذا فالقلب المرح يعيش
طويلاً.

روزلين : إلامَ ترمين، أيتها الفأرة العزيزة، بهذا التلميح العارض؟

كترين : أقصد أن لك طبعاً نزقاً في جمال سمراء.

روزلين : إننا لفي حاجة إلى معلومات أكثر مما لدينا لكي نفهم ما ترمين إليه.

كترين : ستطفئين الضوء إذا ظللت على هذا السأم ولهذا سأسدل على هذا النقاش ستاراً من الظلمة.

روزلين : هذا دأبك. فأنت على الدوام، تفعلين كل ما تودين فعله في الظلام.

كترين : أما أنت فلا تفعلين هذا لأنك فتاة خفيفة العقل.

روزلين : هذا صحيح. أنا خفيفة لأني لست بقدر زنتك.

كترين : إذا كنت لا تزنيني، فهذا معناه أنك لا تقيمين لي وزناً.

روزلين : لدي سبب كاف لذلك. لأن ما لا يلقى العناية يهرب دائماً على الشفاء.

الأميرة : هـذه مبارزة حـاذقة. وكـل منكما قـد شحـذت ذكاءها فـأجادت. ولكنـك يا روزلين قـد تلقيت مثلي شـارة من شـارات الـوداد. فمن ذا الـذي أرسلها، وماذا يكون؟

روزلين : أود أن تعلمي يـا سيدتي أنـه لو كـان لي جمـال وجهك لكان ذكري عظيمـاً كذكـراك فاشهـدي على هذا إذن. لقد تلقيت مثلك شعراً. فالشكر لناظمه براون. أما النظم فصادق. ولـو صحّ مـا يعدّد من صفاتي لكنت أجمل ربة، تخـطو على الأرض. فهـو يشبهني بعشرين ألف فـاتنة. إنـه رسم صورتي في رسالته.

الأميرة : وهل الصورة تشابهك.

روزلين : نعم، كثيـراً ما تشـابهني حين تصفني ولكنها لا تشابهني أبداً حين يطريني ويثني علي.

الأميرة : هـو يقول إن شعـرك الفاحم جميـل كـالمـداد، وهذه نهاية سعيدة.

كترين : ويقول إن قوامك جميل كالألف صورتهـا أنامـل خطاط في دفتر.

روزلين : احذري ما تسطّره الأقلام يـا كترين. لن أمـوت قبـل أن أفي بديني لـك. شقراء أنت كـالحرف

الـذهبي، ولولا أن وجهـك مليء بـالنقط لقلت إنك جميلة.

الأميرة : هـذه دعـابـة سمجـة، واللعنـة على كـل امـرأة شريرة. ولكن انبئيني يـا كترين مـاذا تلقيت من دومين الوسيم؟

كترين : تلقيت هذا القفاز يا سيدتي.

الأميرة : ألم يبعث بالكف الأخرى؟

كترين : بلى يـا سيـدتي. ومعهـا أرسـل ألف بيت من الشعر نظمهـا عاشق مخلص في حبـه. هي آية من آيـات النفاق والكـذب قـد دبجت في خبث وبلاهة لا حد لها.

مريا : وأنـا بدوري تلقيت هـذه الرسـالـة ومعهـا هـذه الجواهر من لونغافيـل، أما الـرسالـة فهي أطول مما ينبغي بنصف ميل.

الأميرة : رأيي من رأيك. أما كنت تتمنين أن يكون العقد أطول والرسالة أقصر؟

مريا : أجل، وإلا لما حلّ وثاق هاتين اليدين.

الأميرة : إن سخريتنا من عشـاقنا على هـذا النحو لـدليل على حصافتنا.

روزلين : وهي بلاهة منهم أن يبتاعوا هذا الهزء والسخرية بذلك الثمن الغالي. سوف أعـذب براون هـذا قبل أن أترك هذه البلاد. ليتني أعلم علم اليقين

أنـه وقع في الشـرك. إذن لجعلته يتمـرغ أمامي
ويبتهــل إلي ويـطلب رضـــاي ويتنـظر الأوان،
ويتحين الأوقات، ويسكب فكاهته المفرطـة في
قـواف ليس فيها غنـاء، ويجعل من نفسـه نادلاً
رهن إيمـاءة مني ويزين نفسـه لعيني لعلي أفخر
به، وما حبي له إلا حب ساخـر. وهكذا أنتصـر
عليه وأملك عليه حيـاته حتى يغـدو دميتي التي
ألهو بها وأغدو كالقضاء الذي يسيره.

الأميرة : حين يصبـح الإنسان العـاقل أحمق فلن يكـون
أسهل منه وقوعاً في الشراك فالحماقة التي تنبت
من الحكمة يظنهـا الناس قـد ولدت الحكمـة،
وهي تستعين بالعلم وتتزين بالذكاء الطلي الذي
هو حماقة العلماء.

روزلين : وحين يعربد الاتـزان والوقـار فإنهمـا يبلغان من
العهر ما لا يبلغه دم الشباب المتأجج.

مريا : وبـلاهـة الحمقى لا تعيب صـاحبهـا كهـذيـان
العقلاء الذي يستخدم كل ما أعطي من قوة ليثبت
بالمنطق أن في السفاهة حصافة الحكماء.

(يدخل بواييه)

الأميرة : ها هو ذا بواييه آت نحونا ووجهه يطفح بالبشر.

بواييه : أكاد أنفجر من الضحك. أين صاحبة السمو؟

الأميرة : ما وراءك يا بوابيه؟

بوابيه : استعدي، يا سيدتي، استعدي! إلى السلاح، يا بنات، إلى السلاح! فالهجوم يدبر لتعكير أمنكن: الحب قادم خفية مدججاً بسلاح الكلام. سوف تؤخذن على غرة. فلملمن شتات ذكائكن. ولتستعد كل واحدة للدفاع عن نفسها، أو فلتهرب كالرعاديد ولما تبدأ المعركة بعد وتخفي وجهها من فرط العار.

الأميرة : رب الصيد يغدو رب إله الحب! ومن يكون هؤلاء الغزاة الهاجمون علينا؟ أفصح يا كشاف، أفصح.

بوابيه : استلقيت تحت شجرة جميز ألتمس النعاس في ظلها الرطيب نصف ساعة أو نحوها، وعندئذٍ شاهدت الملك ورفاقه متجهين نحوي فقطعوا علي نعاسي. وهكذا تواريت في حذر بين الأحراش القريبة. واسترقت السمع فوقفت على هذا الحديث الذي أقصه عليكن: سمعتهم يقولون إنهم قادمون إلى هذا المكان مستخفين. وسوف يكون رسولهم غلام وسيم خبيث، يحفظ عن ظهر قلب ما حملوه من رسالة، وقد علموه ودرّبوه كيف يؤديها صراحة

وتلميحـاً: «هكـذا يجب أن تتكلم . وهكـذا ينبغي أن ترفع قامتك». وقد حسبوا لكـل شيء حسابـه. فقـد حسبـوا أن الفتى سيـظهـر أمـام حضـرة جليلة قـد تعقـد لسانــه. قـال الملك للغـلام: سترى أمـامك مـلاكـاً، ولكن لا تهب شيئـاً بل تكلم بكـل جرأة». فـأجـاب الغـلام: «وكيف أهـابها يـا مـولاي إن المـلاك لا يعـرف الشـر، ولو أنهـا كانت شيـطاناً لخشيت منهـا».

وحين سمعـوا ذلك منـه ضحكوا جميعـاً وربتوا على كتفه، سعادة وسروراً، فازدادت بتقريظهم شجاعته. وفـرك أحدهم كفيـه جذلاً وطـرباً ثم ابتسم هازئاً وأقسم أنه ما سمع طيلة حياته كلاماً أجمـل من هـذا الكـلام، ولـوح آخـر بسبـابتـه صائحاً: «إلى الأمام. ننقض عليهن، وليكن ما يكون». ورقص الثالث هزجاً وطرباً وقال: «كل شيء يسير حسب هوانا». أما الـرابع فتـرنح من فـرط السـرور ثم هــوى إلى الأرض، فحـذا الباقون حذوه فاستلقى كل على ظهره من شـدة الضحك. وقهقهوا عالياً حتى اغرورقت أعينهم بالدمـوع، ولم يكن هناك سبيـل إلى ضبط هذا الجنون.

الأميرة : ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ أهم قادمون لزيارتنا؟

بواييه : نعم، نعم، أعتقد أنهم سيأتـون في زي الروس أو المسكوف، ليتكلموا معكن وليخطبـوا ودكن وليرقصوا معكن. وسيعرض كل واحد منهم قوة حبه على وتيرة فؤاده، بعد أن يستدل عليهـا بما قدمه إليها من هدايا العشاق المحبين.

الأميرة : أحقّاً سيعـرف كـل واحـد سيـدة قلبـه؟ سـوف يكلف هذا العمل العشـاق شططاً، فكـل منا يـا سيـداتي ستلبس على وجهها قنـاعاً. وليس من أحد سيظفر برؤية طلعة محبوبته، مهما ألح في السؤال. إليك يا روزلين هـذه الهديـة، خذيهـا وارتـديهـا. وهكـذا يـظنـك الملك محبـوبتـه فيخطب ودك. أجل، يا حبيبتي، خذي هـديتي وأعـطني هديتـك، فيـظن بـراون أني روزلين، وأنت يـا مريـا، وأنت يـا كتـرين، هيـا، تبـادلا الهـدايا مثلنـا، حتى ينخـدع كـل عـاشق بهـذا التبادل ويخطىء كل محبوبته.

روزلين : هيا إذن، فلنلبس الهدايا في مكان ظاهر.

كترين : ولكن ما مرادك، من هذا التبادل؟

الأميرة : مرادي أن أفسد عليهم خطتهم، فهم لا يجدون ولكن يعبثـون ليهزؤوا بنـا. ولا قصـد لي إلا أن

نبادلهم سخرية بسخرية. بهذا يعرض كل منهم
وداده خطأ على غير محبوبته، فنستطيع أن
نسخر من أفعالهم حين نلتقيهم مرة أخرى
بوجوه مكشوفة لنرحب بهم ونتحدث إليهم.

روزلين : وهل نرقص معهم إذا سألونا ذلك؟

الأميرة : كلا. لن نحرك قدماً معهم ما عشنا. ولن نقبل
منهم هذا الشعر الذي نظموه في حبنا وحين
يقرأ كل منهم أبيات قصيدته، سوف نشيح
بوجوهنا عنهم.

بوابيه : لست من رأيك، فهذا الاحتقار سيسحق فؤاد
موث وينسيه ما حفظه من دوره.

الأميرة : هذا ما رميت إليه. ولست أرتاب في أن بقيتهم
لن يتقدموا إلينا إذا توقف هو عن الكلام. فإذا
نضب معينه فقد هزمته، وإذا انتصر لهوي
وعبثي على عبثه فهذا أجمل عبث في الوجود.
وهكذا نجردهم من عبثهم، أما عبثنا فهو منا
ولنا. فلنبق هنا لنهزأ بهذا الهزل الذي
يضمرونه، أما هم فسينصرفون عنا يجللهم
العار حين تؤلمهم السخرية.

(يسمع صوت نفير)

بوابيه : صوت النفير، هيا البسن الأقنعة، لقد قدم المقنعون.

(يدخل زنوج يحملون آلات موسيقية، ويدخل موث حاملاً صحيفة بها كتاب ويدخل الملك وحاشيته من النبلاء في زي جماعة من الروس المقنعين).

موث : التحيات لأجمل من في الوجود.

بوابيه : ليس الجمال إلا جمال الأقنعة.

موث : أرى باقة قدسية من أحلى النساء.

(توليه السيدات ظهورهن)

اللواتي سحرن بظهورهن أبصار الخلق.

براون : «بعيونهن» أيها الوغد «بعيونهن».

موث : اللواتي سحرن بعيونهن أبصار الخلق. إلى باب....

بوابيه : أصبت. «إلى الباب». هيا إلى الباب.

موث : إلى باب عطفكن، أيتها الأرواح الملائكية، نبتهل إليكن ألا تجدن بنظرة...

براون : «أن تجدن بنظرة»، أيها الوغد.

موث : أن تجدن بنظرة من عيونكن المشرقة كأشعة الشمس ـ بعيونكن المشرقة كأشعة الشمس.

بوابيه : هذا الوصف لا ينطبق عليهن. كان الأحسن أن تقول «المحرقة كأشعة الشمس».

موث : إنهن لا يلتفتن إليّ . سأتوقف عن الكلام .

براون : أهذا أجود ما لديك؟ هيا اذهب أيها الوغد .

(يخرج موث)

روزلين : ماذا يريد هؤلاء الغرباء؟ اسألهم عن مرادهم يا بواييه . فإن كانت لغتهم من لغتنا فإنا نحب أن يفصح رجل صريح عن مرامهم ، اسألهم عن مرادهم .

بواييه : ماذا ترتجون من الأميرة؟

براون : لا شيء إلا السلام والزيارة الكريمة .

روزلين : ماذا يقولون إنهم يريدون .

بواييه : لا شيء إلا السلام والزيارة الكريمة .

روزلين : لهم ما يبغون ، فمرهم أن يذهبوا .

بواييه : الأميرة تقول إن لكم ما تبغون ، فاذهبوا إذن .

فردنند : اخبرها أننا قد قطعنا الأميال الطوال لنرقص معها على هذا العشب .

بواييه : هم يقولون إنهم قطعوا الأميال الطوال ليرقصوا معك على هذا العشب .

روزلين : هذا ليس صحيحاً . سلهم كم بوصة في الميل . فإن كانوا حقيقة قد قطعوا الأميال الطوال فهم بلا ريب يعلمون كم بوصة في الميل .

بواييه : إن كنتم حقيقة قد قطعتم الأميال والأميال

الطوال لتصلوا إلى هذا المكان فالأميرة تأمركم أن تقولوا كم بوصة في الميل.

براون : قل للأميرة إن مقياسنا هو خطواتنا التعبة.

بواييه : إنها تسمع كلامك بنفسها.

روزلين : إذن فكم خطوة متعبة في كل ميل من هذه الأميال الطوال المتعبة التي قطعتموها؟

براون : نحن لا نعد خطواتنا حين نمشي إليك يا مولاتي. فواجبنا تجاهك عظيم لا يحدّ يحثنا إلى أن نقوم به دوماً وبلا حساب، فتعطفي وأشرقي بوجهك علينا كالشمس حتى نتعبد، كأهل الفطرة، لضيائك.

روزلين : بل هو كالبدر وجهي، ويحجبه الغمام.

فردنند : بارك الله في هذا الغمام الذي يحجب هذا البدر! تعطف علينا إذن أيها البدر المنير بضيائك، ولتبزغ معك نجومك، من وراء المنبر هذا الغمام، على عيوننا الدامعة.

روزلين : يا لك من سائل عابث! اطلب ما هو أغلى من هذا. فأنت الآن تضيع وقتك بطلب ما ليس له قيمة.

فردنند : أيها القمر ذو الوجوه الدوارة، تعطف علينا بدورة واحدة، قد رجوتك بإذنك وأنت تقدرين

الرجاء وإن جاء من غريب.

روزلين : إذن فإلينا بالموسيقى. هيا نرقص في الحال. أراك تتردد؟ إذن عدلنا عن الرقص وهكذا أتبدل كما القمر.

فردنند : ألا ترقصين؟ ما الذي دفعك لتتحولين عن رأيك؟

روزلين : لقد أدركت القمر لما كان بدراً فلما انتظرت دخل القمر في دور جديد.

فردنند : ولكن ما زالت هي القمر وما زلت أنا الرجل الذي يظهر في القمر. وما زالت الموسيقى تعزف. فاسمحي بالرقص.

روزلين : آذاننا ترقص مع الأنغام.

فردنند : والواجب أن ترقص الأقدام.

روزلين : ما دمتم أغراب عن هذه البلاد، وقد أتيتم إلى هنا بمحض الصدفة، فلن نخجل منكم، هات يدك: لن نرقص يا سيدي.

فردنند : إذا كنا لن نرقص فلماذا أعطيك يدي؟

روزلين : لنتبادل تحية الوداع، ونفترق كأصدقاء. انحنين للتحية يا حبيباتي. وبهذا تنتهي الرقصة.

فردنند : أعطنا المزيد من هذه التحية. وبهذا يكون الأمر منتهياً.

روزلين : لن تنالوا منا المزيد بهذا الثمن الرخيص.

فردننпри : إذن فحددن أنتن الثمن. بماذا نبتاع صحبتكن؟

روزلين : بانصرافكم، لا أقل من ذلك.

فردننпри : لن يكون هذا.

روزلين : فلا سبيل إذن لشرائنا، ولهذا أقول الوداع. تحيتان لقناعك، ونصف تحية لك.

فردنند : ما دمت تأبين الرقص، فلنتحادث لبعض الوقت.

روزلين : في خلوة إذن.

فردنند : يسرني هذا أكثر من أي شيء آخر.

(يتحدثان على انفراد).

براون : أي سيدتي، يا صاحبة اليد البيضاء، لدي كلمة حلوة واحدة أود أن أقولها لك.

الأميرة : العسل واللبن والسكر. هاك ثلاث كلمات.

براون : بل وثلاث أخرى. ما دمت تحبين الدقة: الخمر والراح والصهباء، يا زهر. «دو، سيه»، ثلاثة وثلاثة، بهذا نتكافأ، ولدينا الآن ست كلمات حلوة.

الأميرة : والحلوة السابعة، هي: مع السلامة، ما دمت تخدع في اللعب فلن ألاعبك.

براون : كلمة واحدة على انفراد.

الأميرة : أرجو ألا تكون حلوة.
براون : أنت قطعت مرارتي.
الأميرة : مرارتك مرة.
براون : لهذا فهي مناسبة.

(يتحدثان على انفراد)

دومين : هل تتكرمين بأن نتبادل كلمة؟
مريا : قل ما هي.
دومين : سيدتي الحلوة...
مريا : أهذا رأيك؟ إذن خذ هذا: سيدي الوسيم، خذ هذا بدل سيدتك الحلوة،
دومين : اسمحي لي بكلمة مثلها أقولها على انفراد، ثم أذهب.

(يتحدثان على انفراد)

كترين : يا للعجب! هل صنع قناعك بغير لسان؟
لونغافيل : أنا أعلم يا سيدتي السبب الذي لأجله تسألين.
كترين : قل السبب. عجل يا سيدي فإني متشوقة لمعرفته.
لونغافيل : السبب أن في قناعك لسانين. وبإمكانك أن تعطي أحدهما لقناعي الصامت هذا.
كترين : قناعك هذا يدعوه الهولنديون «فيل»، أليس الفيل، وفيه من اسمك، هو العجل؟

لونغافيل : العجل! سيدتي الفاتنة!

كترين : كلا! بل عجل سيد وسيم.

لونغافيل : فلنتقاسم الكلمة إذن.

كترين : كـلا، لن أكون نصفـك: العجـل بـأكمله لـك فخـذه وافطمـه. فقد يتبين أن العجـل الرضيـع ثور.

لونغافيل : أنت تنـطحين نفسك بهـذا الهزء المـريـر أأنت ممن يعطون القرون يا سيدتي الطاهرة؟ بـالله لا تفعلي ذلك.

كترين : إذن مت وأنت عجل قبل أن ينبت قرناك.

لونغافيل : هل تأذنين لي بكلمـة معك على انفـراد قبل أن أموت.

كترين : إذن اسمعني خوارك في هدوء فالقصاب يسمـع صراخك.

(يتحدثان على انفراد)

بواييه : إن ألسنـة الحسـان السـاخـرات حـادة كنصـل الموسى الذي يـدق على العيون ويغلق الشعـرة التي تخفي بلطافتهـا على البصـر. حتى يتعب الإدراك في فهمهن. كلامهن يقنع كـل عاقـل، أمـا خيـالهن فـذو أجنحـة أسـرع من النبال.

والرصاص والرياح، ومن الفكر. بل أسرع من أسرع الأشياء.

روزلين : كفى كلاماً يا وصيفاتي، كفى. كفى.

براون : أقسم أننا جميعاً ضربنا ضرباً موجعاً أليماً بهذا الهزء دون غيره.

فردنند : وداعاً، أيتها الفتيات، الغريبات الأطوار. إن لكن عقولاً ساذجة.

الأميرة : ألف وداع يا أبناء موسكو المقرورين.

(يخرج النبلاء والزنوج)

أهذه هي النخبة التي أدهش ذكاؤها الدنيا.

بواييه : إنهم شموع أطفأتها أنت بأنفاسك الزكية.

روزلين : إن عقولهم تناسب أجسادهم، فالخشن منهم عقله خشن، والسمين عقله سمين.

الأميرة : يا لها من نقائض مضحكة! فإن العقل الناقص كالملك البائس الفقير! أتظنين أنهم لن يقوموا بشنق أنفسهم هذه الليلة؟ أو تظنين أنهم سيجسرون بعد اليوم، على الخروج بوجوه سافرة لا أقنعة عليها؟ إن براون الذي يفيض نشاطاً قد فقد أعصابه تماماً.

روزلين : لقد كانوا جميعهم في حالة يرثى لها. فالملك كاد أن يبكي باحثاً عن كلمة طيبة يقولها.

الأميرة : وبراون أقسم أنه غير صالح لشيء.

مريا : ودومين وضع نفسه وحسامه في خدمتي وحين قلت له: لست بحاجة، أصاب العيّ خادمي.

كترين : والسيد لونغافيل قال إني قد غزوت فؤاده هل تعلمن ماذا سماني؟

الأميرة : ربما سماك داء القلب.

كترين : هذا ما قاله عني حقاً.

الأميرة : ما دمت داءً فابتعدي.

روزلين : رأينا رجالاً يبزونهم ذكاء كانوا أبسط منهم زيّاً. ولكن اسمعن البقية إن الملك أقسم أنه عاشقي المخلص الأمين.

الأميرة : وبراون المرح قد عاهدني على الإخلاص.

كترين : ولونغافيل قال إنه لم يخلق إلا ليكون تابعي.

مريا : ودومين قال إنه ملك لي، وإنه قد ألصق بي من القشرة للشجرة.

بواييه : يا مولاتي، ويا سيداتي الحسناوات، انصتن إلى ما أقول. سيرجع السادة من فورهم إلى هذا المكان بألبستهم الحقيقية وبغير تنكر. فمن غير المعقول أن يرضوا بهذه الإساءة الجارحة.

الأميرة : أتظن أنهم سيرجعون.

بواييه : نعم، نعم، علم الله. ولسوف يرقصون مسرة وفرحاً رغم أن الضربات قد هزمتهم فلتسترد كل واحدة هديتها، وحين يقدمون تفتحن كالورود العاطرة في نسيم الصيف العليل.

الأميرة : وكيف نتفتح؟ وكيف نتفتح؟ أفصح لنفهم كلامك.

بواييه : حين ترتدي الحسان القناع تبدو كالأزهار المختبئة في براعمها، وحين تنزع عنها القناع تخرج منها فتبدو كالدمقس الحلو الذي امتزجت فيه الحمرة والبياض، فهن ملائكة تزيح عنها الغمام أو ورود تتفتح.

الأميرة : كفى ألغازاً. ترى ماذا نصنع لو رجعوا إلينا على حقيقتهم ليخطبوا ودنا؟

روزلين : يا سيدتي الكريمة، إذا أردت نصيحتي فلنستمر بالسخرية منهم على حقيقتهم كما سخرنا منهم حين قدموا إلينا متنكرين. فلنشكوا إليهم من جماعة من الحمقى قد زارونا متنكرين في زي الروس وفي ألبسة لا هندام فيها، ونقول إننا لا نعلم هؤلاء الرجال من يكونون، وفيم كان قدومهم إليه خيمتنا، وماذا كانوا يريدون بذلك المشهد السخيف الذي قاموا بتمثيله أمامنا،

وذلك الخطاب الركيك الذي افتتحوا مشهدهم به، ذلك السلوك الفج المضحك الذي ظهروا به أمامنا.

بوابيه : انسحبن يا سيداتي، فقد وصل العشاق.

الأميرة : هيا أسرعن إلى الخيام في خفة الغزلان تسير على الخمائل.

(تخرج الأميرة وروزلين وكترين ومريا)

(يعود الملك براون ولونغافيل ودومين بلباسهم الطبيعي)

فردنند : حفظ الله حياتك وصانها يا سيدي الكريم! أين الأميرة؟.

بوابيه : ذهبت إلى خيمتها. هل تأمرني جلالتك بأية خدمة أقوم بها لديها؟

فردنند : أجل، أن تتفضل وتستمع إلى كلمة مني.

بوابيه : سمعاً وطاعة. وإنها لفاعلة فيما أعلم يا سيدي.

(يخرج)

براون : إن هذا الفتى يلتقط الفكاهة كما يلتقط الحمام الحب ثم يجترها ثانية كلما سنحت له الفرص. إنه بدال يجمع الفكاهات ويبيعها بالمفرق في الأفراح وحول أقداح الخمرة وفي الندوات وفي الأسواق والمواكب. أما نحن، الذين نبيعها

بالجملة، فالله يعلم أننا لا نعرف كيف نعـرضها
العرض الرائع هذا. وهذا الفتى يطوي الحسان
في أكمامه، ولو أنه كان أبانا آدم لأغوى حـواء
بـدل هي أن تغـويـه. وهـو يعـرف كيف يـأسـر
القلوب والأفئدة ويفتعل الرقة في الكـلام، وهو
الـذي لثم يده بتحيـة الوداع. إنـه كالقـرد يتقن
محـاكـاة آداب السلوك، وهــو الفـرنسي اللبق
الذي، حين يلعب النرد، يلعن الـزهر بشـريف
الألفـاظ. بـل هـو يحسن الشـدو ويتقن تقـديم
الـزوار إلى سيدتـه الأميـرة فـلا يخـطيء أبـداً.
تـدعوه كـل سيـدة: «يـا حبيبي»، وهـو عنـدمـا
يصعد السلم برشـاقة يقبـل الدرج قـدميه. هـو
الزهرة التي تبتسم لكل ناظـر ليرى الكـل بياض
أسنـانه النـاصع كعـظام الحوت. ومـا من عادل
منصف حيّ الضمير إلا ويطوي السيد بواييـه ذا
اللسان المعسول بما يستحق من ثناء وتقريظ.

فردننـد : اللعنة على لسانه المعسول، هذا الذي أخـرس
موث، تابع أرمادو، وأنساه الدور الذي حفظه،
نعم، أنا ألعنه من صميم قلبي.

(تعـود الأميـرة ويعلن عن قـدومهـا بـواييـه ومـع الأميرة
روزلين ومريا وكترين والأتباع)

براون : انظر إلى آداب السلوك آتية نحونا. أين كنت يا آداب السلوك قبل أن يعلن هذا المهرج عن قدومك. وماذا تكونين الآن؟.

فردنند : جاد بك الغيث يا سيدتي الساحرة وصحا نهارك.

الأميرة : الغيث والصحو لا يتوافقان على ما أتصور.

فردنند : أرجوك أن تحسني فهم كلامي.

الأميرة : إذن فأرجوك أن تحسن تحيتي. قد سمحت لك في ذلك.

فردنند : أتينا لزيارتك ونود الآن أن نقودك إلى بلاطنا فهل تتفضلين بالقبول.

الأميرة : هذا الحقل سيحفظني ويحفظ بذلك عليك قسمك. فالله لا يحب الحانثين ولا أنا أقبل بهم.

فردنند : لا تلومينني على ما جنت يداك. فالفضيلة في عينيك تحلني من قسمي.

الأميرة : أنت تسيء فهم الفضيلة، وقد كان يجب أن تقول الرذيلة. فليس من عمل الفضيلة أن تنكث بعهود الرجال. لهذا أقسم بشرف عذريتي الطاهرة كالسوسنة التي لم تدنسها يد إنسان، أني لن أرضى بالضيافة في قصرك ولو

تحملت في ذلك كل ما في الدنيا من عذاب.
وهذا يريك كم أكره أن أكون سبباً في الحنث بالأيمان التي يرتبط بها الشرف وتشهد عليها السماء.

فردنند : واأسفاه! لقد أقمت في هذا البلقع فريدة وحيدة لا أحد يراك ولا يزورك إنسان، ونحن أشد ما نكون خجلاً من ذلك.

الأميرة : كلا يا مولاي، ليس الأمر كما تقول. أقسم لك أن هذا غير صحيح. فقد نعمنا هنا بأطيب الألعاب وأمضينا أوقات فراغنا على أحسن ما يكون ولقد زارنا أربعة من الروس ولم ينصرفوا إلا مؤخراً.

فردنند : ماذا تقولين يا سيدتي؟ من الروس!

الأميرة : نعم يا مولاي، هذه هي الحقيقة. وقد كانوا مثالاً للنبل والأناقة، يفيضون بالتودد وتجللهم المهابة.

روزلين : بل قولي الصدق يا سيدتي، ليس هذا صحيحاً يا مولاي، فسيدتي، جرياً على عادة هذه الأيام، تلقي المديح جزافاً على من لا يستحقونه مجاملة منها وتأدباً. نعم، لقد زارنا نحن الأربع نسوة أربعة رجال في زي الروس

وأقاموا بيننا ساعة يثرثرون. ولكنهم يا مولاي لم يتكرموا علينا بكلمة طيبة واحدة طوال هذه الساعة. ولا أستطيع أن ألقبهم بالحمقى البلهاء، ولكن رأيي فيهم أنك لا تفرقهم من الحمقى إن رأيتهم ظمأى مقبلين على الشراب.

براون : هذه دعابة لا تروي غليلاً. إن ذكاءك، يا حسنائي الكريمة يجعل من الحصافة حماقة. فإننا حين نحملق في الشمس، وهي عين السماء الملتهبة، لنحييها يعشينا الضياء فنفقد البصر. وإن عبقريتك الفذة قد وسعت كل شيء حتى لتبان بجانبها الحكمة سفاهة والثراء فقراً.

روزلين : كلامك هذا يثبت أنك من أهل الحصافة ومن أهل الثراء، لأنك في عيني . . .

براون : أحمق وفقير مدقع.

روزلين : لولا أنك أخذت ما هو لك، لقلت إنك أخطأت حين اختطفت الكلام من فمي اختطافاً.

براون : بل أنا وكل مالي ملك يديك.

روزلين : الأحمق كله ملك يدي؟

براون : وهل بمقدوري أن أعطيك أقل من ذلك؟

روزلين : أي قناع وضعت على وجهك؟

براون : أين؟ متى؟ أي قناع؟ وفيم تسألين عن هذا؟

روزلين : هناك، في ذلك الوقت، ذلك القناع، أعني ذلك الستار، الإضافي الذي ستر أسوأ الوجهين وأبان عن أحسنهما.

فردنند : لقد اكتشفن الحقيقة، وسوف يسخرن الآن منا أشد سخرية وأمرها.

دومين : فلنعترف إذن بما صنعناه ولنجعل منه موضع طرافة ودعابة.

الأميرة : أمتعجب أنت يا مولاي؟ وما سر هذه الكآبة التي تبدو على محيا جلالتكم؟

روزلين : النجدة! النجدة! اسندوا جبهته. يكاد أن يغمى عليه. ما سر هذا الشحوب؟ أظن أن دواراً أصابك وأنت قادم من موسكو.

براون : هذه أوبئة تتنزل بها النجوم علينا لأننا حنثنا باليمين. هل يوجد في الدنيا وجه صفيق يحتمل من اللوم والتأنيب أكثر من هذا؟ هأنذا أقف أمامك يا سيدتي فصوبي إليَّ جميع ما في جعبة مهارتك من نبال وسهام اسحقيني بازدرائك ولا مبالاتك. املأي نفسي اضطراباً بسخريتك. اطعني غباوتي بنصال ذكائك النفاذ. مزقيني إرباً بسنان عقلك الثاقب. فلن

أسألك أن ترقصي معي ما بقيت حياً، ولن أقف في خدمتك بلباس الروس بعد اليوم. أجل. إنني ما عشت، لن أثق في الخطب المنمقة ولا في كلام الفتيان الأغرار، ولن أزور من أعشق متخفياً خلف قناع، أو أغازلها بالشعر، كأنني المغني الضرير يترنم بقيثارته. لن أتغزل بألفاظ مدبجة كأنها الثوب الزاهي الألوان، أو بأقوال ناعمة كالحرير، أو بالخيال الموشى كأنه المخمل النفيس، أو بالبيان المتكلف أو بالبلاغة المتحذلقة. إن هذه الأشياء الدنيئة السافلة قد ملأتني غروراً، وإني لعازف عنها جميعاً. قسماً بهذا القفاز الأبيض الذي يستر يداً علم الله مقدار بياضها، أعلن أني بعد اليوم لن أغازل، إلا بلا أو نعم صريحتين لا مواربة فيهما ولا مجاملة. وهأنذا أبدأ كلامي فأقول، أعانني الله على ما أقول: إن حبي لك، يا فتاة، حب نظيف لا عيب فيه ولا أوضار عليه.

روزلين : إن في قولك «لا أوضار» شيئاً من التأنق فدع ذلك من فضلك.

براون : إن بي أثراً من الغضب القديم، صبراً. لقد

أدركني المـرض، ولكني سـأشفى منـه شيئاً فشيئاً. مهلاً! تطلعن إلى هؤلاء الثلاثة تشاهدن الداء والمرض ينخران أجسامهم. لقـد أصابهم الداء، وهو كامن في أفئدتهم. أجـل، أصابهم الـطاعون. رمتهم بـه ألحاظكن. هؤلاء السـادة صـرعى الـطاعـون. وأنتن يـا سيـداتي لستن بمنحىً، منه. فإني أراكن تحملن أعراضه.

الأميرة : ولكن السـادة الـذين نحمـل تـذكـارهم بمنجى منا.

براون : حياتنا أسيرة بين أيديكن، ولا أمل لنا بـالنجاة، فمن العبث أن نحاول.

روزلين : غير صحيح هـذا. وكيف يكون صحيحـاً وأنتم أصحاب الدعوى.

براون : صمتاً! فلن يكون لي معك شأن.

روزلين : وأنا أيضاً لن يكون لي معك شأن، إذا فعلت ما أنويه.

براون : لقـد فـرغت كنـانتي. فهيـا دافعـوا أنتم عن أنفسكم.

فردنند : علمينا يا سيدتي كيف نكفر عن إساءتنا إليكن.

الأميرة : إن في الاعتراف خير تكفيـر. ألم تكن هنا منـذ هنيهة متنكراً؟

فردننـد : بلى، لقد كنت يا سيدتي.

الأميرة : وهل كنت في كامل عقلك؟

الملك : نعم كنت يا سيدتي الحسناء.

الأميرة : وبم همست عندئذٍ في أذن محبوبتك حين كنت هنا؟

فردننـد : بأني أقدرها أكثر مما أقدر كل ما في الوجود.

الأميرة : فإذا همت بامتحان وفائك تركتها وأعرضت عنها.

فردننـد : كلا، أقسم لك بشرفي.

الأميرة : صمتاً! صمتاً! كف عن القسم، فمن حنث بالعهد مرة سهلت عليه اليمين.

فردننـد : إذا حنثت بهذه اليمين فاحتقريني.

الأميرة : سأفعل ذلك، فاحتفظ بقسمك إذن. يا روزلين، بماذا همس في أذنك السيد الروسي؟

روزلين : لقد أقسم يا سيدتي، أنه يحبني كنور عينيه الذي لا يفوقه شيء، وأنه يقدرني فوق كل ما في الدنيا، ثم أضاف أنه إن لن يتزوجني فسوف يموت عاشقي المخلص.

الأميرة : إذن أكمل الله فرحتك به يا روزلين. فهذا السيد النبيل سوف يفي بما وعد به كما يوجب بذلك الشرف.

فردنند : ماذا تعنين يا سيدتي؟ أقسم بحياتي وبشرفي إني ما سبق وأقسمت لهذه السيدة، بمثل هذا القسم.

روزلين : وأنا أقسم بالسماء أنك قد أقسمت لي على ذلك. وقد أعطيتني هذه الهدية توكيداً لما تقول. فخذ هديتك يا سيدي. فهأنذا أردها إليك.

فردنند : بل أنا أعطيت العهد والهدية معاً للأميرة. وقد عرفتها بهذه الدرّة التي تحملها على كمها.

الأميرة : المعذرة يا سيدي. إن السيدة روزلين هي التي كانت تضع هذه الدرّة، والسيد براون هو الذي خطب ودي، فالشكر له. والآن يا سيدي براون، ألا تزال تريد يدي أم تود أن تسترجع الدرة التي وهبتني إياها؟

براون : لا أنت ولا هي، فإني أتخلى عن كليكما. لقد أدركت سر اللعبة. لقد كان ثمة اتفاق بين هؤلاء النسوة وقد ورد إليهن علم مسبق بدعابتنا فتواطأن على إفسادها كأنها الكوميديا التي تمثل في عيد الميلاد أجل، لقد وشى بمرادنا واش، أو نمام أو طفيلي، أو مهرج حقير، أو ثرثار يشقشق بالأنباء والأخبار، أو فارس من فرسان

المـآدب، أو مسافـر مهذار لا يكف عن الهـزل ويعرف كيف يضحك سيدتي كلما طابت نفسها للمزاح والهزار. وما إن علمت السيدات بسـرنا حتى تبادلن ما أخذن من هدايا. وهكذا تبع كل منا إشارة غـرامه فغـازل غير محبـوبته. وهكـذا أضفنـا إلى حنثنا السـابق حنثاً جـديداً، فـازداد إثمنا بشاعـة لأننا سعينـا، بمحض إرادتنا، إلى هذا الخطأ. هذا ما أعتقد أنه حدث.

(مخاطباً بواييه)

وأنت يا سيد بواييه. ألم تعلم بـدعابتنـا فعملت لتفسـدها لكي يـظهـر للسيـدات زيفنـا؟ ألست تعـرف من أين تؤكل الكتف وتـدخل على قلب سيـدتي الانشراح. أنت الـطفيلي الـذي يحمي ظهر سيدتي من النـار ويمزح طـرباً وهـو يحمل الصحـاف. أنت الذي قمت بـإسكـات تـابعنـا الفتى عن تـلاوة القصيدة. ولكن لا جنـاح على أحمق. وحين تنفق سـوف يكـون كفنـك ثـوب امـرأة. أبيٌّ تشمت؟ إن عينك هـذه كسيف من رصاص لا يخترق شيئاً.

بواييه : هكذا مرحنا أشد المرح بهذه الدعابة الـظريفة، التي سارت إلى نهاية الشوط.

براون : انظروا إليه! ها هو ذا يتهيأ للنزال مجدداً. اصمت، لقد قلت كل ما لدي. (يدخل كوستار) مرحى بالقريحة الصافية النقية. أنت تقف بيننا فتضع حداً لهذه المبارزة النبيلة.

كوستار : إن هذا رأيك يا سيدي، فهؤلاء السادة يريدون أن يعرفوا هل الأبطال الثلاثة قادمون أو غير قادمين.

براون : وكيف ذلك؟ هل ضمر الأبطال التسعة إلى ثلاثة؟

كوستار : كلا يا سيدي، ولكن كل واحد منهم سيقوم بأدوار ثلاثة أبطال.

براون : وثلاثة في ثلاثة تساوي تسعة.

كوستار : كلا يا سيدي، أرجو ألا تكون كذلك. فتسعة رقم المغفلين، ونحن لسنا من المغفلين أؤكد لك ذلك يا سيدي. نحن ندرك ما تعلمناه وأرجو يا سيدي أن تكون ثلاثة في ثلاثة.

براون : لا تساوي تسعة.

كوستار : لا تؤاخذني يا سيدي، نحن نعرف حاصل ثلاثة في ثلاثة.

براون : قسماً! لقد كنت دائماً أحسب أن ثلاثة في ثلاثة تساوي تسعة.

كوستار : هذا رأيك يا سيدي، لو كنت تكسب عيشك من الحساب لمت جوعاً.

براون : كم إذن ثلاثة في ثلاثة؟

كوستار : هذا رأيك يا سيدي. أما الممثلون فسوف يرونك حاصل ثلاثة في ثلاثة. أما أنا فعلي أن أقوم بدور رجل واحد لا أكثر، وهذا البائس يا سيدي هو بومبيون الكبير.

براون : أأنت أحد الأبطال؟

كوستار : هكذا رأوا أني أليق بدور بومبي الكبير. أما أنا فلا أعرف شيئاً عن مكانة هذا البطل، ولكني رغم ذلك سأمثل شخصه.

براون : هيا انصرف إذن، ومرهم أن يستعدوا.

كوستار : سوف نمثل أحسن تمثيل. وسوف نمثل بعناية.

(يخرج)

فردنند : اسمع يا براون: سوف يجلبون العار علينا امنعهم من القدوم.

براون : إن الحياء لا يعرف سبيله إلينا يا مولاي. ثم إن هناك بعض الحكمة في أن ترى سيداتنا منظراً أردأ من مشهد الملك ورجاله.

فردنند : أنا آمر بعدم قدومهم.

الأميرة : بلى يا مولاي الكريم، دعني أفرض عليك رأيي

الآن، فأبهج الألعاب ما لا يعرف أصحابه كيف يبهجون. وحرص اللاعب على الرضى يميت الدور الذي يلعبه. وأدعى الأشياء إلى البهجة ما تمازجت أشكالها، وليس أروح على النفس من عظائم الأمور تجاهد لتخرج إلى الحياة فتموت في مهدها.

براون : هذا أحسن وصف يا مولاي لما دبرناه من فكاهة.

(يدخل أرمادو)

أرمادو : يا من توّجت ملكاً علينا، أبتهل إليك أن تتكرم عليّ بأنفاسك الملكية الزكية فتخاطبني بكلمتين.

(يتحدث إلى الملك ويسلمه ورقة)

الأميرة : هل يعبد هذا الرجل الملكَ أم يعبد الله؟

براون : لم تسألين هذا السؤال؟

الأميرة : إنه لا يتكلم كرجل من خلق الله؟

أرمادو : سيان الأمر لدي يا مليكي الوسيم الجميل الشهي كالعسل المصفى. فأنا أعلن أن المدرس هولوفيرنز رجل مفرط في أوهامه، ووساوسه بل آية من آيات الغرور. أجل آية من آيات الغرور ولكن فلندع الأمر في كفة الوغى

كما يقولـون فهي التي ترجـح ما تشـاء. وإنني أتمنى لشخصيكما الملكيين راحة البال.

(يخرج)

فردنند : يظهر أنه قد اجتمع لنا من يمثل الأبطال التسعـة خيـر تمثيل: فهـذا الرجـل يمثـل هكتـور بـطل طروادة، والفلاح يمثل بومبي الكبير، والقسيس يمثـل الإسكندر، وتـابع أرمـادو يمثل هـرقـل، والمدرس المتحذلق يمثل يهوذا المكابي. وإذا نجح هؤلاء السادة الأفاضل الأربعة في أدوارهم في المشهد الأول غيّروا ألبستهم ومثلوا الخمسة الباقين.

براون : أنت احتسبت خمسة في المشهد الأول.

فردنند : غلطت فهذا غير صحيح.

براون : المدرس المتحذلق والنفـاج والقسيس والمغفل والفتى. هؤلاء خمسـة لم يتكرم الـدهر بمثلهم إن نظرت إلى كل منهم حسب قيمته.

فردنند : أرى سفينـة المغفلين قد بسـطت شراعهـا، وها هي ذي تمخر العباب باتجاهنا.

(يدخل كوستار في زي بومبي)

كوستار : أنا بومبي...

براون : كذبت. أنت لست بومبي.

كوستار : أنا بومبي . . . .

بوابيه : رأس سبع، والسبع جاث على ركبتيه.

براون : أتقنت الوصف، أيها الساحر الأصيل، ومن واجبي أن أصطلح وإياك.

كوستار : أنا بومبي، وبومبي أنا، والناس يلقبونني ببومبي الطويل. . .

دومين : الأكبر.

كوستار : أجل يا سيدي. «الأكبر». يلقبني الناس ببومبي الأكبر. أنا الذي كثيراً ما خضت المعارك حاملاً درعي فجعلت خصومي يتصببون عرقاً. وقد قدمت إلى هنا مصادفة بعد أن جبت سواحلكم، وها أنذا ألقي بسلاحي عند قدمي هذه الهيفاء الجميلة أميرة فرنسا فإذا قلت يا سمو الأميرة: «شكراً بومبي»، انتهيت من دوري.

الأميرة : شكراً عظيماً لبومبي العظيم.

كوستار : أنا لا أستحق هذا الشكر كله، ولكنني آمل أن أكون قد وفقت، فأنا لم أرتكب سوى غلطة واحدة في كلمة «الأكبر».

براون : أراهن بقبعتي نظير نصف بنس أن بومبي أحسن الأبطال.

(يدخل السيد ناثنيال في زي الإسكندر)

ناثنيال : حين كنت من أهل الدنيا كنت سيد العالمين، ونشرت جيوشي المظفرة في الشرق والغرب والشمال والجنوب. وهذه الشارة البسيطة تشهد بأني الإسكندر.

بواييه : ولكن أنفك يشهد بأنك لست الإسكندر فهو أشد استقامة مما يجب.

براون : بل أنفك الحساس يا بواييه هو الذي قد اشتم أنه ليس بالإسكندر...

الأميرة : أرى القنوط يغمر الفاتح. استمر في كلامك أيها الإسكندر الصالح.

ناثنيال : حين كنت من أهل الدنيا كنت سيد العالمين...

بواييه : صحيح هذا. وقد أصبت في القول، فقد كنت كذلك يا إسكندر.

براون : وبومبي الأكبر....

كوستار : خادمك المطيع كوستار.

براون : أخرجوا الفاتح الغازي. اخرجوا الإسكندر.

كوستار : (مخاطباً ناثنيال) ـ ماذا صنعت يا سيدي! لقد

أسقطت الإسكندر الفاتح. وسوف ننزع عنك ملابسك الملونة عقاباً لك. وشعارك هذا، هذا الأسد حامل البلطة سيُعطى للبطل آجاكس بدلاً منك، وسيكون هو البطل التاسع. أتقوم بدور الفاتح وتخشى أن تفتح فمك! هيا اذهب وتوار خجلاً يا إسكندر. (ينصرف ناثنيال) أسألكم أن تنظروا إليه. انظروا إليه تروا رجلاً وديعاً ولكنه أحمق، رجلاً شريفاً ولكنه يفقد شجاعته وبسالته سريعاً. إنه في الحقيقة، خير جار، وهو يحسن لعب الكرة، ولكنه لا يحسن لعب دور كالإسكندر. ولكن للأسف! لقد رأيتم أن الدور أكبر منه، ولكن سواه، من الأبطال قادمون وسوف يعبرون عن أنفسهم بطريقة أخرى.

الأميرة : تنح يا صديقي بومبي.

(يدخل هولوفيرنز في دور يهوذا وموث في دور هرقل)

هولوفيرنز : إن هذا الفتى يقوم بدور هرقل العظيم الذي فتكت عصاه بسربروس، ذلك الكلب المتوحش ذي الرؤوس الثلاثة. وحين كان هرقل طفلاً رضيعاً ضئيل الحجم خنق بيده الثعابين هكذا. وإذا كان اللاعب بدور هرقل

يبدو غير كفء. فقد جئتكم بهذا الاعتذار. هيا اذهب يا هرقل. هيا تـوار عن الأبصار ولكن احتفظ بالوقار عند خروجك.

(يخرج موث)

هولوفيرنز : وأنا يهوذا...

دومين : يهوذا!

هنولوفيرنز : لست يهوذا الإسخريوطي يا سيدي. ولكني يهوذا الملقب بالمكابي.

دومين : يهوذا هو يهوذا مهما جمّلته بالنعوت.

براون : يهوذا الخائن الذي قبل المسيح ليسلمه لليهود. هل أبديت حقيقتك يا يهوذا؟

هولوفيرنز : أنا يهوذا...

دومين : بهذا يزداد عارك وشينك يا يهوذا.

هولوفيرنز : إلى ماذا ترمي يا سيدي؟

بوابيه : إنك تجعل يهوذا يشنق نفسه.

هولوفيرنز : تفضل، قل يا سيدي، فأنت أكبر مني سناً.

براون : أحسنت. إن يهوذا شنق نفسه على شجرة ندماً منه على صنيعه.

هولوفيرنز : لن يحمر وجهي حياءً لهذا الكلام.

براون : لأنك لا وجه لك.

هولوفيرنز : ماذا تقول؟

بوابيه : بل لك رأس يشبه رأس القيثارة.

دومين : بل يشبه رأس الدبوس للشعر.

براون : بل يشبه رأس ميت قد نقش على خاتم.

لونغافيل : بل يشبه الـرأس على عملة رومانيـة قديمـة، لا يكاد يتبينه الناظر.

بوابيه : بل يشبه رأس سيف قيصر.

دومين : بل يشبه الجمجمة المنقوشة على الزجاجة.

براون : بل يشبه جانباً من وجه مار جرجس نشاهـده في الشارة.

دومين : والشارة من رصاص.

براون : يلبسهـا المزينـون الذين يخلعـون الأضـراس. والآن هيا. تقدم. لقد رددنا لك وجهك.

هولوفيرنز : بل أجبرتموني على أن أستر وجهي.

براون : هذا هراء، لقد أنعمنا عليك بوجوه ثلاثة.

هولوفيرنز : ولكنكم حطمتموها جميعاً.

براون : ولو كنت أسداً لصنعنا بك هذا.

بوابيه : أما وهو حمـار، فلندعـه، يمضي لحال سبيله، مع السلامة إذن يا يهوذا، لماذا تتريث؟

دومين : هو ينتظر نصف اسمه الباقي.

براون : أعطيته اسمه وهو يهوذا. فأعطه لقبه. الحمـار ـ الحمار، انصرف إذن يا يهوذا الحمار.

هولوفيرنز : هذا كلام غير شريف خالٍ من كل ذوق وأدب.

بواييه : أضيئوا طريق السيد يهوذا، فالدنيا تظلم في عينيه، وقد يتعثر في دربه.

(يخرج هولوفيرنز)

الأميرة : يا أسفاً على هذا المكابي المسكين! لقد عذبتموه عذاباً موجعاً.

(يدخل أرمادو في دور هكتور)

براون : أي أخيل، اختف وتوار فقد أتى هكتور مدججاً بالسلاح.

دومين : سوف أطلق لنفسي العنان فأهزأ به، ولو ارتد هزئي به علي.

فردنند : لقد كان هكتور إنساناً عادياً إذا قورن بهذا.

بواييه : ولكن هل كان هكتور على هذه الشكل؟

فردنند : لا أعتقد أن هكتور كان شديد البنية إلى هذا الحد.

لونغافيل : إن ساقه أضخم من ساق هكتور.

دومين : والضخامة في بطن الساق بلا ريب من علامات الحماقة.

بواييه : ولكن أسفل ساقه هو أضخم ما فيه.

براون : مستحيل أن يكون هذا هكتور.

دومين : هذا الرجل إما أن يكون إلهاً وإما رساماً. فهو

يصوغ من وجهه وجوهاً كثيرة.

أرمادو : إن مارس، إلّه الحرب، الذي لا يكسر له سلاح، قد أنعم بهدية على هكتور.

دومين : أعطاه جوزة طيب محلية بطلاء الذهب.

براون : بل أعطاه ليمونة.

لونغافيل : محشوة بأعواد القرنفل.

دومين : بل مفلوقة.

أرمادو : صمتاً! إن مارس، إلّه الحرب القادر على كل شيء، قد أنعم بهدية على هكتور، وهو وريث «إليون» الذي حظي من وفرة الصحة أنه كان يخرج من خيمته ليقاتل من الصباح إلى المساء. وأنا تلك الزهرة.

دومين : تلك النعناعة.

لونغافيل : تلك النرجسة.

أرمادو : يا سيدي لونغافيل، اضبط زمام لسانك.

لونغافيل : بل سأترك للساني الزمام لأن يهجم على هكتور.

دومين : وهكتور أسرع من كلاب القنص.

أرمادو : وارحمتاه على هذا المقاتل الكريم، فهو الآن في عداد الأموات وجسده طعام للديدان. فيا أحبائي، لا تهشموا عظام الأموات فقد كان

هكتور رجلاً من بين الرجال حين كان حياً يرزق. ولكني سأكمل الدور الذي أمثله. فيا مولاتي الكريمة، أعيريني أذنيك.

(يتقدم بواييه)

الأميرة : تكلم يا هكتور الشجاع، فسرورنا بك عظيم.

أرمادو : وأنا أعبد حذاء مولاتي الكريمة.

بواييه : إنه يعشقها بالقدم.

دومين : وقد لا يحبها باليارد.

أرمادو : وهكتور هذا يعلو على هنيبعل بلا نقاش. وقد قطعت الجماعة.

كوستار : انصت إلي يا صديقي هكتور. إن صاحبتك قد قطعت من الطريق شهرين.

أرمادو : وماذا تعني؟

كوستار : أقول الحقيقة إنك إذا لم تقم بدور الرجل النبيل. فسوف تحطم حياة البنت المسكينة. إنها حامل والطفل يصخب الآن في بطنها، فهو ولدك....

أرمادو : أتلوث سمعتي أمام هؤلاء الأماجد؟ فسوف تموت بيدي.

كوستار : ما دام الأمر كذلك فإن هكتور سيجلد بالسياط بسبب جاغينيتا التي حملت منه، ثم يشنق

بسبب بومبي الذي مات بيده.

دومين : أنت نادر بين الرجال يا بومبي!

بواييه : أنت عظيم بين العظماء يا بومبي!

براون : أنت أعظم من عظيم، أنت بومبي المعظم العظيم العظيم! أنت بومبي المهول!

دومين : أرى هكتور يرتجف.

براون : إن بومبي ثائر: هاتوا المزيد من الشحناء! هاتوا المزيد من البغضاء! أثيروهما، أثيروهما.

دومين : سيتحداه هكتور.

براون : إذا بقي في جوفه دم، أكثر مما يمتصه البرغوث.

أرمادو : أقسمت بالقطب الشمالي: إني أتحداك.

كوستار : أنا لا أقاتل بالقطب، كما يصنع أهل الشمال. أنا البتار، أنا أبتر بالحسام، أرجوك أن تعيرني أسلحتي التي كنت أحملها.

دومين : الأبطال غضبانون، فافسحوا لهم المجال.

كوستار : سأقاتل وأنا في قميصي.

دومين : هكذا يصنع أهل القوة والعزم يا بومبي!

كوستار : دعني يا سيدي أعاونك على خلع سترتك، ألا ترى بومبي يخلع سترته استعداداً للقتال؟ ماذا تعني؟ إنك ستفقد شهرتك.

أرمادو : أيها السادة، أيها المقاتلون: إني أطلب عفوكم، لن أقاتل في قميصي.

دومين : لن تتراجع بعد أن تحداك بومبي.

أرمادو : يا أهل الحسب والنسب. من حقي أن أتراجع، وسوف أتراجع.

براون : وما السبب؟

أرمادو : هاكم الحقيقة العارية: أنا لا أرتدي قميصاً. أنا أرتدي الصوف على اللحم لأكفّر عن الخطايا.

بواييه : صحيح هذا، وقد أمروه بذلك في روما لعدم توافر الألبسة الداخلية. وأقسم لكم أنه منذ ذلك اليوم لم يرتدِ إلا ميدعة جاغينيتا وأنه يرتديها حول قلبه تذكاراً لحبه.

(يدخل السيد ماركاد وهو رسول)

ماركاد : صان الله حياتك يا سيدتي!

الأميرة : مرحباً بك يا ماركاد. وإن كنت تقطع علينا ما نحن فيه من لهو ومرح.

ماركاد : يؤسفني ذلك يا سيدتي، فالخبر الذي أنقله إليك حزين ثقيل على لساني. إن والدك الملك...

الأميرة : توفي، تكلم!

ماركاد : نعم، لقد قصصت قصتي.

براون : انصرفوا أيها الأبطال. إن المشهد قد بدأ يتلبد بالغيوم.

أرمادو : أما أنا فالغمة انزاحت عن صدري. فقد رأيت بعين العقل يوماً مليئاً بالأخطاء، وسأقّوم نفسي كما يفعل الجندي العتيد.

(يخرج الأبطال)

فردنند : كيف حال جلالتك؟.

الأميرة : أعد العدة يا بواييه، فسأرحل الليلة.

فردنند : لا تذهبي يا سيدتي. أتوسل إليك أن تظلي بيننا.

الأميرة : قلت أعد العدة يا بواييه. شكراً جزيلاً يا سادتي الكرام على ما بذلتم في سبيلنا من مكرمات، وإني لأستعطفكم، بما لكم من حصافة وافرة، بنفس جدت عليها الأحزان أن تتكرموا فتطووا أو تصفحوا عما كان بيننا من إسراف في النقاش واللجاج، إذا كنا قد تجاوزنا الحدود في المجادلة. فما شجعنا على ذلك إلا كرمكم وأدبكم. وداعاً يا سيدي الكريم! فالفؤاد الحزين لا يتقن آداب الكلام. فالصفح الجميل إذا كنت قد ونيت في شكركم على استجابتكم الكريمة للأمر الخطير الذي قدمت من أجله.

فردنند : إن كان لا بد من قرار سريع فإن الظروف المحيطة بالإنسان، في تلك الساعة، تجبره على إخضاع كل شيء لهذه الظروف، وهو من أجل ذلك، كثيراً ما يحسم، أموراً قد لا يتمكن أن يحسمها بالتفكير الطويل. وإذا كان حزن الأبناء على الآباء لا يسمح للعاشق المتفائل أن يعلن ما في فؤاده النقي من غرام، فإن حديث الهوى كان يجري قبل حديث الأحزان، فلا يجب أن تحجب غمامة الأسى عن العاشق وطره. ولا ينفع أن نندب الحبيب الفقيد كما ينفع أن نطرب للحبيب الجديد.

الأميرة : أنا لا أفهم مرادك. لأن حزني مضاعف.

براون : لا ينفذ إلى الفؤاد الجريح شيء كالكلام البسيط، فافهمي مراد الملك من هذا الكلام الجلي الذي يعبر عما في فؤاده. لأجلكن نسينا الزمن ومن أجلكن حنثنا بالقسم. فجمالكن يا سيداتي قد أفسدنا وجعلنا ننقض كل ما رمينا إليه. فإذا كان قد ظهر منا شيء يدعو إلى السخرية، فأنغام الحب أكثرها ناشزة، والحب كالطفل اللعوب يرقص دون عقل ويثب دون سبب. والحب يولد في العين، فهو إذن كالعين تمتلىء

بعجيب الأطيـاف، وتمـوج بشتـى الأشكـال والألـوان، وتختلف فيها الصفـات كلما انتقلت العين بين شتى الأشيـاء. وإذا كنـا قـد ارتـدينـا ثوب الحب المعربد فبدا في عيـونكن الساحـرة منكـراً متنافـر الألـوان غيـر لائق بـوقـارنـا وبمـا تعاهدنا عليه، فسحر عيونكن التي ترى كل هذه العيوب، هو الذي صنع بنـا كل ذلـك. وما دام الأمـر كذلـك يا سيـداتي، وما دام عشقنـا لكن نابعاً منكن، فأخطاؤه عائدة إليكن أيضاً. ها نحن أولاء نخون أنفسنا إذن نخون العهد مـرة واحدة لنفي بعهـدكن إلى أبد الآبـدين، يـا سيـداتي، الساحرات، يـا من علمننا الخيـانة والإخـلاص جميعـاً، وهذه الخيـانـة، وإن كـانت في ذاتهـا رذيلة، فمن أجلكن تـطهـر نفسهـا، بـل من أجلكن تصبح فضيلة فاضلة.

الأميرة : نعم، لقـد جـاءتنـا رسـائـل ودادكم ومعهـا هـداياكم، وهي رسـل غـرامكم. وقـد تبـادلنـا الرأي بالأمر كما تفعل العذارى الشريفات فرأينا أنها، في باب الغرام، لا تعدو أن تكـون فكاهـة ظـريفة، وفي آداب الفـروسيـة، لا تتجـاوز أن تكون لغواً أجوف نقضي به الوقت. فلم نكترث

لها أو نهتم بها بـأكثر من ذلـك، ولهذا استقبلنـا غـرامكم بما قصـد له أن يكـون، أي موضـوعاً للفكاهة.

دومين : ولكن خـطاباتنـا يا سيـدتي، كـان بهـا أكثر من الفكاهة.

لونغافيل : وكذلك نظراتنا كان بها أكثر من الفكاهة.

روزلين : ولكننا لم نفهم منها هذا.

فردننك : وفي هذه اللحظة الأخيرة، امنحننا حبكن.

الأميرة : أعتقـد أن هذه اللحـظة لا تكفيينـا لنـدخـل في شـركة أزليـة. لا يـا مـولاي. لا. إن جـلالتـك خائن للعهود. غائص في الخطيئة العظيمـة، من أجل هذا أقـول: إذا كنت تحبني حقاً وتفعـل، من أجلي وحدي، أي شيء في الوجـود، فهذا مـا آمـرك أن تفعله: لن أثق بقسمـك، فـاذهب على جناح السرعة، إلى صومعة مهجورة جرداء بعيـدة عن كل مـا في الـدنيـا من ملذات، وابق هنـاك حتى ينقضي الحول وتـدخل الشمس في أبـراجها الاثني عشـر، فإذا كانت هذه الـوحـدة القـاسية لا تبـدل من ودادك الذي تعـرضه عليَّ الآن في سـورة الشهـوة، وإذا لم يقتـل صقيـع الشتاء والصيام الطويل وقسوة المسكن وخشونة

اللباس أزهار حبك هذه ويطفىء ألوانها اليانعة فيحتمل غرامك هذه المحنة ويخرج منها قوياً طاهراً، فلترجع إليّ عندما يمضي الحول رجوع الفارس لنزالي، وليكن سلاحك الذي تتحداني به هذه الفضائل التي تجمعت لك.
وإني لأقسم بيدي الطاهرة هذه التي تصافح يدك الآن، أني سأكون ملكاً لك. وإلى أن يأتي ذلك الوقت سوف أنزوي مع نفسي الكئيبة في دار الأحزان وأسكب الدمع مدراراً، حداداً على والدي الذي مات. فإن رفضت ذلك فليكن الوداع. ولتفترق يدانا فنفترق: لا حق لك في طلبي ولا سلطان لي على قلبك

فردنند : ألا فلتغمض يد الموت المباغت عيني لو أنني رفضت أن أنصاع بهذا الأمر أو بأكثر منه، مؤثراً عليه راحة العيش ونعيم الحياة، امضِ إذن إلى صومعتك أيها الناسك فصدر حبيبتي صومعة لفؤادي.

براون : وماذا تطلبين مني يا حبيبتي؟ ماذا تطلبين؟

روزلين : لا بد من تطهيرك حتى تبرأ من آثامك فقد دنسك الحنث وأفسدتك الأخطاء. فإذا شئت أن تنال رضاي، حكمت عليك بأن تشقى سنة

كاملة لا تذوق فيها طعم الراحة ساعياً إلى جوار المرضى تخفف آلامهم.

دومين : وماذا تطلبين مني يا حبيتي؟ ماذا تطلبين؟ أتطلبين أن نتزوج؟

كترين : أطلب منك ثلاثة: اللحية والعافية. والشرف. فحبي لك مضاعف ثلاثة أضعاف يجعلني أطلب منك هذه الثلاثة.

دومين : يا للفرحة! هل أقول شكراً يا زوجتي العزيزة؟

كترين : تمهل، يا سيدي. سأقيم عاماً ويوماً واحداً لا أستمع فيهما لكلام معسول مما يقوله الخاطبون. فتعال عندما يجيء الملك إلى مولاتي، فإن ظل عندي، حب كثير فسأعطيك منه شيئاً.

دومين : وسأكون أنا خادمك الصادق الأمين، المخلص إلى أن يأتي ذلك الحين.

كترين : لا تقسم على شيء، لئلا تحنث في يمينك مرة أخرى.

لونغافيل : وماذا تقول مريا؟

مريا : عندما يأفل العام سأنزع عني ثياب الحداد وأرتدي مكانها رداء حبك.

لونغافيل : سأصبر صبراً جميلاً. ولكن هذا وقت طويل.

مريا : وأنت أطول منه. أنا ما عرفت طوالاً مثلك في مثل صغر سنك. والصغير السن يقدر أن ينتظر.

براون : أتتحدثين عن الدرس يا سيدتي؟ انظري إليّ يا سيدة القلب. تطلعي إلى عيني، وهما النافذتان اللتان تفضحان كل ما يجيش في فؤادي، ترى فيهما عاشقاً مطيعاً يضع نفسه طوع أمرك وإشارتك. مريني بشيء أقوم به لأثبت لك حبي.

روزلين : لطالما سمعت عنك يا سيدي براون قبل أن أشاهدك، فالدنيا كلها تنعتك بأنك رجل ساخر لا حد لسخريته، وتقول إن خيالك زاخر بالتشبيهات، وإن طرائفك ونكاتك، لا تدخر أحداً، وقع تحت رحمتك. مهما علا قدره أو سفل من الهزء الجارح المرير. فإن شئت أن تستخرج هذه الدودة التي تلتهم مخك الخصب، وتحظى بيدي، ولن تنالها إلا إذا عملت ما أشير به، فقد وجب عليكم أن تمضي هذه السنة بأكملها، اليوم بعد اليوم، في عيادة المرضى الذين فقدوا نعمة النطق، وتداوم على التكلم مع البائسين المتوجعين، ولتكن هذه

مهمتك، أن تستخدم كل ما حباك الله من فكاهة ذكية لترد الضحك إلى شفاه هؤلاء العاجزين المعذبين.

براون : وكيف أستطيع أن أنتزع الضحك من فم الموت؟ هذا لا يمكن أن يكون. هذا مستحيل فالمرح والسرور لا يمكن أن يجدا سبيلهما إلى النفس المعذبة.

روزلين : ولكن هذه الوسيلة المثلى لتكبت نوازعك الهازئة الساخرة التي ينميها فيك اغتباط البلهاء بما يتكرم به عليهم السفهاء من ضحك رخيص. فحياة الفكاهة ليست في لسان قائلها، بل في أذن مستمعها. فإن رضيت آذان المرضى، التي أصمها الأنين المرير وعويل الآلام بأن تستمع إلى هزئك وسخريتك السّخيفين، فامض إذن فيما أنت فيه وسأقبل، أنا بك على علتك، وإذا نبذوك فانبذ أنت روحك الساخرة، ولشد ما يسرني أن ألتقي بك وقد صلحت حالك وأبللت من ذا العيب.

براون : اثنا عشر شهراً تامة كاملة! فليكن ما يكون، سأعبث اثني عشر شهراً في مستشفى، فليكن ما يكون.

الأميرة : (مخاطبة الملك) قد اتفقنا إذن يا مولاي الكريم. فائذن لي بالرحيل.

فردنند : كلا يا سيدتي. سنرافقكم في الطريق.

براون : إن غرامنا لا ينتهي كما ينتهي الغرام في الحكايات المألوفة، لن نقول إننا عشنا في ثبات ونبات، ولو أرادت هؤلاء السيدات لجعلن من لهونا مسلاة فكاهية.

فردنند : هيا بنا يا سيدي. فلننتظر عاماً ويوماً، ثم نصل إلى النهاية.

براون : هذا أطول مما تتطلبه المسرحية.

(يدخل أرمادو)

أرمادو : يا جلالة الملكة الكريمة: تنازلي و. . . .

الأميرة : ألم يكن هذا هكتور؟

دومين : بلى فارس طروادة الباسل.

أرمادو : دعيني أقبل أنا ملك الملكية ثم أطلب السماح بالذهاب. أنا راهب في محراب الغرام. لقد عاهدت جاغينيتا أن أمسك بالمحراث لمدة ثلاث سنوات لأثبت لها حبي. ولكن أتحبين يا مليكتي المعظمة أن تستمعي إلى المحاورة التي وضعها السيدان العالمان في مدح البومة والوقواق؟ لقد كان من المقرر أن تكون

المحاورة هذه في نهاية المشهد الذي مثلناه.

فردنند : ناد الرجال بسرعة. سنستمع إلى المحاورة.

أرمادو : هيا، تعالوا.

(يعود هولوفيرنز وناثينال وكوستار، وآخرون)

: هـذه الجهـة، هي الشتـاء، وهـذه الجهـة هي الـربيـع. والأول تمثله البـومـة، والثـاني يمثله الوقواق.

هيا بـاشر يا ربيع.

الأغنية

الربيع : عنـدمـا تنتشـر في المـروج الأقحـوان المتعـدد
الألـوان والبنفسـج الأزرق والسوسن الفـضي
الأبيض وبراعم الزنبق الأصفر،
فتلوّن المروج بأبهج الألوان،
يهـزأ الـوقـواق على كـل شجـرة من الأزواج
مزقزقاً:
وقوق، قرون، وقوق، قرون،
فيـا لهـا من كلمـة رهيبـة مقيتـة إلى مسـامـع
المتزوجين وعندما ينفخ الرعيان، في الأرغول.
وتصدح القبرة الطروب، وهي ساعـة المزارع،
معلنة تباشير الفجر ليخرج المزارع إلى محراثه.
وعندما يخطر الحمائم وتصبغ الشمس رياش
العقعق والغراب الأسحم وثياب العذارى
بضياء الصيف الساطع، يهزأ الـوقواق على كـل
شجرة من الأزواج مزقزقاً.
وقوق، قرون، وقوق، قرون.
فيـا لهـا من كلمـة رهيبـة مقيتـة إلى مسـامـع
المتزوجين.

الشتاء : عندما تتجمد قطرات الماء فتصبح عموداً من
جليد معلقاً على الجدار،
وينتظر الفتى صابراً لا يجد ما يفعله،
ويحمله أخوه الخشب إلى المدفأة في صحن
المنزل،
وعندما يجمد اللبن في الإناء، ويتجمد الدم
في الأوردة والعروق، وتمتلىء الدروب
بالوحول، تغني البومة الشاخصة كل ليلة قائلة.
تعال! تعال! أغنية مرحة تغنيها البومة.
في حين تبرّد الزوجة الحقيرة إناءها الملتهب.
وعندما تعصف الرياح بصوت شديد،
وتغرق ترانيم القسيس في سعال المصلين،
وتجثم الطيور على الثلوج، وعندما يبدو
أنف الزوجة أحمر كاللحم النيىء، ويئز سرطان
البحر المشوي في المقلاة تغني البومة
الشاخصة كل ليلة قائلة:
تعال! تعال! أغنية مرحة تغنيها البومة في حين
تبرد الزوجة الحقيرة إناءها الملتهب.

أرمادو : ألا تعتقدون معي أن كلام عطارد، إله الشتاء،
ثقيل على السمع بعد غناء أبولو، إله الربيع؟

(يخرجون)

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ — ٨١٥٥٧٣

رَوَائِع شكسبير

- مكبث
- الملك لير
- هملت
- عطيل
- كليوباترا
- العاصفة
- يوليوس قيصر
- تاجر البندقية
- ريتشارد الثالث
- روميو وجولييت
- سيدان من فيرونا
- حلم ليلة صيفية
- العين بالعين
- ملهاة الأخطاء
- مأساة كوريولانس
- خاب سعي العشاق